٢١٣

HARLEQUIN®

روايات احلام

لم أعد طفلة

بيني جوردان

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة

لم أعد طفلة

على روزي ويندهام الزواج في غضون ثلاثة أشهر أو تحلّ الكارثة ! ومع أنها جميلة ومحبوبة، فحياتها خالية من رجل جاهز للزواج بها، فما العمل؟

كان غارد جيميسن رجلاً ناضجاً وجذاباً... وأعزب، فلماذا لا «تطلب يده»؟.

لم يكن هناك من سبب يدفع غادر للقبول وهو الذي طالما اعتبرها طفلة مضحكة. ولكنه وافق، وموافقته تعني أن هناك ثمناً غالياً على روزي أن تدفعه!

www.elromancia.com

ISBN 9953-15-034-6

لبنان : ٢٥٠٠ ل.ل.	البحرين : ١ دينار
سوريا : ٧٥ ل.س.	السعودية : ١٠ ريال
الأردن : ١.٥٠ دينار	مصر : ٥ جنيه
الكويت : ٧٥٠ فلس	المغرب : ١٥ درهم
الإمارات : ١٠ دراهم	تونس : ٢ دينار
قطر : ١٠ ريال	عُمان : ١ ريال

روايات أحلام

مجلة قصصية أسبوعية تصدر عن شركة دار الفراشة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.
كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
Unwanted Wedding
First published in Great Britain 1995
Harlequin Mills & Boon Limited

© Penny Jordan 1995
Translation © Dar El-Farasha- 2001

ISBN 9953 - 15 - 034 - 6

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: ١١/٨٢٥٤ هاتف/فاكس: ٨٤١٤٠٢ - ١ - ٩٦١ - بيروت - لبنان
Email: dfarasha@cyberia.net.lb

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومانسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ما هي نتيجة هذا الاختيار؟

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص
أسرة أحلام

www.elromancia.com

١ ـ أريد زوجاً!

«هل تتزوجني، يا «غارد»؟».

أخذت «روزي» تذرع أرض غرفتها، وقد توتّرت ملامحها، وانقبضت يداها، كما أظلمت عيناها الزرقاوان، الصريحتان في العادة، وهي تكرر نفس الكلمات مرة بعد مرة بصوت خافت. ومع ذلك ما زالت غير واثقة من أنها ستتمكن من قولها بصوت عال: «هل تتزوجني؟ هل تتزوجني؟ هل تتزوجني؟»

ها إنها قالتها، وإن لم تبد الكلمات بالحزم والتأكيد المطلوبين. على أي حال، اجتازت الآن الحاجز الأول، وبإمكانها إذن اجتياز الآخر... هكذا أخذت تحدّث نفسها بشجاعة.

ابتلعت ريقها بصعوبة، ثم نظرت إلى التليفون القائم بجانب سريرها: «لا فائدة من التردد، ومن الأفضل الانتهاء من هذا الأمر الآن!».

ولكن ليس هنا! ليس وحدها في غرفتها المنعزلة بينما هي... وحولت عينيها فجأة عن غطاء السرير المزين بباقات الأزهار، بذوق الفتيات الصغيرات. فقد كانت في الرابعة عشرة عندما اختارته، بينما هي الآن في الثانية والعشرين تقريباً.

في الثانية والعشرين! ولكنها ما زالت بالسذاجة والبساطة التي

كانت عليهما. . . أو هكذا قيل لها.

شعرت بغصة في حلقها، وهي تتذكر من قال لها هذه الكلمات.

فتحت باب غرفتها، ثم أسرعت تهبط السلم. ستستعمل تليفون الغرفة التي كانت مكتب أبيها وجدّها من قبل. من الأفضل أن تقول تلك الكلمات من غرفة المكتب تلك، فهذا يمنحها وزناً وكرامة.

رفعت السماعة ثم أخذت تدير الأرقام، توتر جسمها وهي تسمع الرنين. ثم قالت للفتاة التي أجابتها من الطرف الآخر:

ـ أريد «غارد جيميسين»، من فضلك! أنا «روزي ويندهام».

أخذت تنتظر الاتصال وهي تقضم باطن شفتها السفلى متوترة. . . وهذه عادة تملكتها منذ طفولتها وظنت أنها تجاوزتها.

ـ الأطفال فقط يفعلون هذا، أما النساء. . .

كان هذا ما حذرها منه غارد عندما كانت في الثامنة عشرة.

ثم سكت حينذاك ونظر إليها ساخراً، ما جعلها تسأله دون تفكير: «ماذا تفعل النساء؟».

مال إلى الأمام وأشار إلى شفتها السفلى المتورمة، ثم قال بالسخرية نفسها:

ـ النساء، يا روزي العزيزة البريئة، لا يكون هذا الأثر على شفاههن إلا بفعل عاشق. . .

لقد ضحك طبعاً لاحمرار وجنتيها. هذا هو غارد! «لو كان عاش في الزمن القديم، لكان قاطع طريق أو قرصاناً. . . رجلاً لا يهتم لأحد ويضع بنفسه قوانينه وأنظمته»! هذا ما كان يقوله جدها على الدوام. جدها الذي كانت تشعر أنه يكنّ له دوماً نوعاً من العطف رغم عدم اعترافه بذلك.

ـ ماذا تريدين يا روزي؟ ماذا حدث؟

دفعتها خشونة صوته إلى تشديد قبضتها على السماعة مدركة أنه ما زال يثير في نفسها الإضطراب. هذا رغم أنها تعلمت أثناء نضجها كيف تتجاهل تعليقاته الساخرة التي ما زال يعذبها بها أحياناً.

لم يكن يتصرف على هذا النحو مع النساء الأخريات، بل كان يفيض معهن إحساساً ودفئاً. لكنه، طبعاً، لا يعتبرها امرأة، وإنما فقط. . .

ـ روزي هل ما زلت على الخط؟.

أعادها الضيق الذي بدا على صوته، إلى الواقع. تنفست بعمق:

ـ نعم، ما زلتُ هنا! غارد. . . هناك شيء يا غارد أريد أن أسألك عنه الآن. . .

ـ لا أستطيع الكلام الآن، يا روزي! إنني بانتظار مكالمة هامة. اسمعي! سأزورك هذه الليلة ونتحدث في ما تريدين.

شعرت روزي بالذعر، وقالت على الفور:

ـ لا! لا!

تريد أن تسأله من مسافة بعيدة. إنها لا تريد أن تعرض عليه الزواج وجهاً لوجه. وغصت بريقها، لكنه كان قد وضع السماعة فلم تستطع إخباره بأنها لا تريد رؤيته.

عندما وضعت سماعتها، أخذت تحدق في أنحاء الغرفة بحزن.

أربعمائة عام من التاريخ تنام في هذه الغرفة من هذا المنزل الذي أنشيء هنا منذ وهبت الملكة اليزابيت الأولى قطعة الأرض لـ «بيرس ويندهام» هدية مقابل خدمات أداها لها. هكذا قيل رسمياً، لكن الشائعات حينذاك قالت إنها مقابل علاقة شخصية حميمة.

أطلق «بيرس» على المنزل اسم «مرج الملكة» اعترافاً منه بكرم اليزابيت. لم يكن منزلاً فخماً، حتى ولا فسيحاً. لكنه في نظر روزي

www.elromancia.com

كان فسيحاً للغاية بالنسبة إلى شخص واحد، أو حتى أسرة واحدة... خصوصاً عندما علمت أثناء عملها في الملجأ كم من الناس دون مأوى وفي حاجة ماسة إلى سقف فوق رؤوسهم.

آخر مرة طرقت هذا الموضوع مع غارد، قال لها ساخراً معنفاً:

ـ لو كان لك الخيار ماذا كنت ستفعلين؟ تسلمينهم المنزل؟ ثم تتفرجين عليهم وهم ينتزعون خشب الجدران ليستعملوه حطباً في المدفأة؟ تتفرجين عليهم وهم...؟.

احتجت حينذاك بغضب:

ـ هذا ليس إنصافاً! أنت غير منصف...

حتى «رالف»، المسؤول عن الملجأ، قال في أكثر من مناسبة إنها غير واقعية، وإنها مبالغة في المثالية ورقة القلب، كما أن ثقتها بالآخرين هي أكثر مما يجب. خُيّل إليها أن رالف يميل إلى احتقارها، إذ كان، منذ البداية، عدائياً نحوها، ساخراً من بيئتها التي نشأت فيها ولهجتها المميزة، مديناً ثروتها وأسلوب حياتها، مقارناً كل ذلك بحياة أولئك القاطنين في الملجأ.

قال ذات مرة، هازئاً:

ـ إن قيامك بعمل إنساني يجعلك تشعرين بالرضى عن نفسك، أليس كذلك؟.

فأجابت حينذاك بصدق:

ـ هذا ليس صحيحاً! لأن أموالي، أو ثروتي كما تحب أن تسميها، هي... تحت الوصاية، ولا يمكنني التصرّف بها حتى لو رغبت في ذلك. وأعتقد أنني إذا سعيت إلى عمل «حقيقي»، أي عمل بأجر، أكون سلبت ذلك العمل من شخص بحاجة إليه ليعيش.

تحسنت العلاقة بينهما هذه الأيام كثيراً، رغم أنهما كانا شديدي

الكراهية لبعضهما البعض. والأحرى القول إن رالف هو الذي يكره غارد، ذلك أن غارد لم يكن يعبّر عن مشاعره تجاه أيٍ كان. وفي الواقع، كان الشك يساورها أحياناً في أن غارد قد عرف حقاً المشاعر البشرية في حياته.

إنها تعلم مبلغ كراهية رالف الذهاب إلى غارد كي يطلب مساعدة مالية للملجأ، لكن غارد كان أغنى رجل في المنطقة، وأعماله أكثر الأعمال رواجاً.

قال لها أبوها ذات مرة:

ـ إنه مزيج نادر جداً! إنه مقاول ناجح للغاية، كما أنه رجل نزيه وذو مثل عليا!

أما رالف فكان يدعوه «بغلاً متعجرفاً».

ـ جذاب!

همست بذلك إحدى زميلات روزي القديمات في المدرسة عندما جاءت لزيارتها. كانت متزوجة، وقد سئمت زوجها على ما يبدو. فقد نظرت إلى غارد بنهم مكشوف لم تجده روزي محرجاً فحسب، بل مذلاً أيضاً. كانت سارا، بنظراتها المحرقة التي أخذت تلقيها على غارد باستمرار، والتلميحات والإيماءات المكشوفة، وبعض الملامسات المتعمدة، تبرز، بشكل ما، عدم نضج روزي، مبررة بذلك ما اعتاد غارد أن يوجهه إليها من انتقادات ساخرة.

هي تعلم جيداً أن غارد يظنها ساذجة غافلة.. لابأس! فلتتحمّلْ تعليقاته وسخريته المربكة، والمؤلمة أحياناً، لكنها سبق وعاهدت نفسها منذ زمن طويل ألا تندفع في علاقة غرامية من خارج مشروع الزواج، ومع رجل له مثل مشاعرها، رجل يحبها ولا يخجل من الإعتراف بحبّه، ما يجعلها تتخلى معه عن تحفظها وتكشف له عن

www.elromancia.com

الجانب العاطفي من طبيعتها.

إنها لم تقابل ذلك الرجل حتى الآن، وستعرفه عندما تقابله، لكنها غير مستعجلة، على كل حال. فهي ما زالت عذراء في الحادية والعشرين. في الحادية والعشرين وعلى وشك عرض الزواج على رجل... ليس بالتأكيد من النوع الذي تطلبه!

نظرت إلى ساعتها، إنها الرابعة! كانت تعلم أن غارد غالباً ما يبقى في مكتبه فترة طويلة بعد مغادرة الآخرين. وهذا يعني أنه لن يأتي إليها قبل السابعة أو حتى الثامنة. كل تلك الساعات للانتظار!... ولتهيّء نفسها لعرض الزواج ذاك! واحمر وجهها ضيقاً.

ماذا سيقول؟ سيضحك منها دون شك! كل ذلك كان ذنب محاميها! لو أن «بيتر» لم يقترح...

وسارت نحو النافذة وهي تتذكر آخر كلمات بيتر قبل أن يخرج:

ـ عديني بأن تسأليه، على الأقل، يا روزي.

حينذاك أجابته غاضبة:

ـ ولماذا أضحي بنفسي لأنقذ هذا البيت؟ هذا غير ممكن حتى ولو كنت أريده... أنت تعرف شعوري.

رد عليها بيتر معترضاً:

ـ أنت تعلمين ما الذي سيحدث إذا ورثه «إدوارد». سيهدمه بالتأكيد وهو يشعر بالسرور.

ـ وأيضاً ليعود إلى منزل جدي. نعم، أعلم هذا.

كان إدوارد ابن عم أبيها. وقد تشاجر مع جدها قبل أن تولد روزي بوقت طويل، شجاراً خطيراً يسبب سلوكه والمال، كان من نتيجته أن منعه الجدّ من وضع قدمه في هذا المنزل مرة أخرى.

لكل أسرة نعجتها السوداء، كما يقال، وأسرتهم غير مستثناة من ذلك. حتى وهو في منتصف عمره الآن، وبالرغم من مظهره المحترم وزواجه، ثمة شيء غير سار في شخصية إدوارد.

قد لا يكون تجاوز القانون في معاملاته المالية، ولكنه بالتأكيد تجاوز حدوده تحت ستار الظلام غير مرة، كما اعتاد أبوها أن يقول أبوها...

أشاحت روزي بوجهها عن النافذة، ونظرت نحو المكتب. كانت صورة أبيها الفوتوغرافية ما زالت فوقه. صورة أخذت له بالبذلة العسكرية قبل موت أخيه الأكبر بوقت قصير.

لقد ترك الجيش، حينذاك، وعاد إلى البيت ليكون بجانب أبيه... ولم يكن هو نفسه غريباً عن الموت منذ وفاة والدة روزي.

كان هذا المنزل «مرج الملكة» يعني الكثير بالنسبة إلى أبيها وجدها. كانت هي تحب البيت طبعاً ـ ومن ذا الذي لا يحبّه؟ ـ وإنما دون شعور بالتملك.

لم يكن ما شعرت به وهي تجول في حجراته، هو الزهو، وإنما الشعور بالذنب.

يا ليت الأمور كانت غير ما هي عليه الآن! يا ليت إدوارد غير ما هو عليه! إذن، لغادرت هذا المنزل بسهولة وسرور واشترت أو استأجرت لنفسها شقة صغيرة في المدينة ومنحت كل وقتها واهتمامها للعمل في الملجأ.

ولكن كيف بإمكانها أن تفعل ذلك الآن؟

لقد حذرها بيتر حينذاك، قائلاً:

ـ سيهدم إدوارد المنزل. سيجمع أولاً كل ما يستحق البيع من محتوياته ثم يهدمه حجراً بعد حجر، ثم يبيع الأرض لأحد أصدقائه

www.elromancia.com

المقربين الذي سوف...

قاطعته محتجة:

- كلا! لا يمكنه القيام بذلك. المنزل مسجّل تراثيا و...

- حسب معرفتي بإدوارد، لن يصعب عليه أبداً العثور على من يدعي أن البنائين أساؤوا فهم التعليمات التي أعطيت لهم. هل تظنين أن هذا البيت سيصمد طويلاً عندما يهاجمه نصف «دزينة» من الرجال مع «بلدوزراتهم»؟ وطبعاً، لن تكون لإدوارد أية صلة بما حدث! إنه يكره جدك، يا روزي، وهو يعلم كم كان هذا المنزل غالياً عليه وعلى أبيك.

قالت روزي متنهدة:

- كثيراً جداً! لا، يا بيتر، هذا المكان أكبر من أن تسكنه أسرة واحدة، مهما يكن مقدار جماله... آه! لماذا لم يستمع جدي إليّ ويسجّله مؤسسة خيرية؟ لماذا لم يفعل ذلك؟.

- أنت إذن لا تهتمين بما يحدث للمنزل؟ ألا يهمك أن يرثه إدوارد ويدمره... يدمّر أربعمئة عام من التاريخ؟.

قالت متبرمة:

- طبعاً يهمني! ولكن ماذا بإمكاني عمله؟ إنك تعرف شروط تلك الوصية الحمقاء، التي تركها جدي، كما أعرفها: في حال وفاة ولديه قبله، يذهب منزله ومزرعته إلى أقرب أقربائه بشرط أن يتزوج خلال ثلاثة أشهر من وفاته ويصبح قادراً على إنجاب وريث. لقد كتب تلك الوصية منذ سنوات بعد وفاة عمي توم، ولو أن أبي لم...

سكتت حينذاك مختنقة بالدموع. لم تكن استوعبت بعد فكرة وفاة أبيها بنوبة قلبية قبل أسابيع فقط من وفاة جدها بعد إصابته بغيبوبة توفي على أثرها. ثم قالت بأسف:

- شروط تلك الوصية مكتملة جميعها في إدوارد...

قاطعها بيتر بهدوء:

- إنك أقرب أقرباء جدك.

أجابته حينذاك، بجفاء:

- نعم، لكنني لست متزوجة، ومن غير المحتمل أن أتزوج، على الأقل ليس خلال الأشهر الثلاثة القادمة.

حينذاك قال بيتر بثقة:

- بل يمكنك عقد زواج مصلحة. زواج لغرض محدّد يمكنك من استكمال شروط وصية جدك. زواج يمكن إنهاؤه بسرعة وسهولة.

- زواج مصلحة؟

وحدقت به روزي باهتمام. بدا لها الأمر وكأنه من إحدى الروايات الخيالية التي تحب قراءتها. موضوع شاعري جميل لكنه لا يحدث في الحياة الواقعية.

- لا!

قالت ذلك بانفعال واستنكار، وهي تهز رأسها بعنف جعل خصلات شعرها السوداء تترامى على كتفيها. دفعتها عن وجهها بضيق. كان شعرها آفة حياتها... أسود داكناً متمرداً يضج حيوية؛ ولطالما دعاها جدها، وهو يدللها، بالغجرية الصغيرة. لكنها كلما حاولت ترويضه وتنظيمه، كان يثور ويعود إلى شكله السابق، كومة من الخصل الجعدة حالما ينغلق باب الحلاّق خلفها. وهكذا تخلّت في النهاية عن كل محاولة للسيطرة عليه.

- هذا مستحيل! وحتى زواج المصلحة، يحتاج إتمامه إلى شخصين. وأنا لا أعرف شخصاً يقبل...

لكن بيتر قاطعها، حينذاك، قائلاً:

www.elromancia.com

- أنا أعرف.

أتراها سمعت نبرة شؤم في هذه الكلمات، أم أنها تخيلت ذلك؟

سكتت وهي ترفع بصرها إلى وجه محاميها، بارتياب. ثم سألته بحذر:

- من؟

- غارد جيميسن!

ما إن قال ذلك حتى انهارت جالسة على السلم وهي تقول بحزم:

- لا! أبداً هذا غير ممكن!.

لكنه تابع يقول بحماسة وكأنه لم يسمع اعتراضها:

- إنه الشخص المناسب تماماً! وهو على أي حال، لا يخفي رغبته في امتلاك هذا المنزل.

أجابت بجفاء وهي تتذكر كم من المرات كان غارد يزعج جدها متوسلاً إليه أن يبيعه المنزل:

- أبداً! إذا كان يريد هذا المنزل حقاً، يمكنه إقناع إدوارد ببيعه.

رفع بيتر حاجبيه:

- هيا، يا روزي! أنت تعلمين أن ادوارد يكره غارد بقدر ما كان يكره جدك تقريباً.

تنهدت روزي. كان هذا صحيحاً! ذلك أن غارد وإدوارد عدوا مصلحة قديمان. وكما قال أبوها في أكثر من مناسبة: لم تحدث بين الرجلين مواجهة، إلا كان غارد هو الرابح.

قالت:

- نعم! ومجرد معرفته بمبلغ حب غارد لهذا المنزل، يقوّي رغبته في هدمه.

- إن حديثنا يتناول فقط بعض الترتيبات العملية بينكما، أنتما الاثنين. بعض الاجراءات الشكلية البسيطة التي تمكنك من استيفاء شروط الوصية، وفي الوقت المناسب، يمكن فسخ الزواج. يمكنك أن تبيعي البيت لغارد و...

فسألته بارتياب:

- في الوقت المناسب؟ كم من الوقت يستغرق ذلك؟.

- سنة أو سنتين... لا أظن أن هنالك شخصاً آخر تريدين الزواج منه، أليس كذلك؟ وإلا لما كان هناك مشكلة أو حاجة للزواج من غارد.

قالت بحزم:

- لا يمكنني القيام بذلك، الفكرة كلها تبدو لي كريهة منفرة.

- حسناً! عليك إذن أن توطني نفسك لقبول حقيقة أن إدوارد سيرث. لقد مضى على وفاة جدك شهر تقريباً.

قالت متجاهلة قول بيتر:

- لا يمكنني القيام بذلك. لا يمكنني أن أطلب من رجل أن يتزوجني، خصوصاً غارد...

ضحك بيتر، حينذاك:

- إنه عرض عملي، ليس إلا. فكري في ذلك، يا روزي. إنني أعرف تذبذب مشاعرك نحو المنزل «مرج الملكة»، لكنني لا أصدق أنك تريدين أن تري إدوارد يهدمه.

- لا! لا أريد ذلك بالتأكيد!.

- وماذا ستخسرين إذن؟

قالت عندذاك:

- حريتي!

www.elromancia.com

عند ذلك ضحك بيتر:

ـ آه، لا أظن غارد سيتدخل في هذا الأمر. إنه أكثر انشغالاً من أن يهتم بما تفعلين. عديني بأن تفكري في الموضوع على الأقل، يا روزي. إنني أفعل هذا لأجلك، لأنك إذا سمحت لإدوارد بهدم المنزل، فلن يمكنك التخلص من الشعور بالذنب.

فسألته بجفاء:

ـ هل تخدمني بابتزازي؟.

وإذ بدا عليه، حينذاك، شيء من الضيق، قالت:

ـ لا بأس. سأفكر في الأمر.

وأخيراً، فعلت أكثر من مجرد التفكير في الأمر، كما اعترفت روزي وهي تعود بأفكارها إلى الحاضر.

ـ المشكلة معك هي أنك أرق قلباً مما يجب أن تكوني.

كم من المرات سمعت هذا الإتهام يوجّه إليها على مرّ السنين! مرات لا تحصى!

لكن بيتر على حق. لا يمكنها أن تدع إدوارد يدمّر المنزل من دون أن تحاول منعه، بتضحيتها بنفسها! وارتسمت على شفتيها ابتسامة حين التمعت في ذهنها فكرة ماكرة. يا لخيبة غارد لو أنه تمكن من قراءة أفكارها! كم من النساء يعتبرن، مثلها، الزواج منه تضحية...؟ لسن كثيرات... حتى ولا واحدة، على ما تعتقد.

حسناً، إنها فتاة غريبة إذن... وشاذة بحيث أنها، لسبب ما، لم تستطع أن ترى فيه أية جاذبية كسائر النساء. إنها إذن حصينة إزاء مواهبه التي تنهار أمامها النساء... تنضح أعينهن رهبة وهنّ يهذين بشكله المثير وعينيه الملتهبتين... بفمه وكتفيه وجسمه، وشخصيته المهيبة وهالة الغموض التي تحيط به.

من الغريب أن آخر شيء كن يذكرنه هو ثروته!

حسناً، لا يمكنها أن ترى فيه ما يجذبها عاطفياً. فهو بالنسبة إليها خنزير ساخر متغطرس لا يسره شيء أكثر من جعلها موضعاً للهزل.

أثناء حفلة عشاء منذ شهر واحد فقط، قالت لها المضيفة إن ابن عمها يرغب في الجلوس بقربها أثناء العشاء. مال غارد نحو روزي، وكان قد سمع الحديث، قائلاً بتهكم:

ـ إذا كان يرجو أن يجد امرأة تحت هذه الكتلة الشعثاء من الشعر، وهذا الثوب المضحك الذي ترتدينه، يا روزي، سيصاب دون شك بخيبة أمل مرة، أليس كذلك؟.

ولما كان «الثوب المضحك» الذي أشار إليه عزيزاً جداً عليها، إذ صنعته بنفسها من قطع قماش أحضرتها من المبرات الخيرية، فأصلحتها وغسلتها ونسقتها بكل فخر واعتزاز ـ إذ كان الأمر كذلك، فقد رمقته بنظرة بالغة المرارة وهي تقول:

ـ ليس كل الرجال يحكمون على المرأة من خلال إغرائها، يا غارد!.

فكان أن أجاب حينذاك، دون اهتمام بمشاعرها:

ـ هذا من حسن حظك! لأنك، حسب الأقاويل، ليس لديك أدنى فكرة عن هذا الموضوع!.

احمر وجهها طبعاً، ليس فقط لما قاله فهي، على كل حال، لا تشعر بالخجل لأنها غير مستعدة لإقامة علاقات عابرة ولكن للطريقة التي كان غارد ينظر بها إليها... للسخرية البادية في عينيه، وأيضاً للصورة المفزعة التي مرّت للحظة في خيالها إذ تمثلته مع إحدى عشيقاته المغرمات!

www.elromancia.com

نبذت هذه الصورة من ذهنها على الفور، لائمة نفسها على خيالها الخصب وتهويماتها المزعجة.

ذاك المساء، كانت قد تابعت الجدال مع غارد، قبل أن يغادر المنزل مع شقراء رائعة الجمال والأناقة كانت بصحبته.

كانت قالت له وهي ترفع ذقنها الصغير تحدياً:

ـ على كل حال، من الأصوب هذه الأيام عدم إقامة علاقات عاطفية.

أجابها بلطف موافقاً:

ـ من المؤكد أن الظروف الحالية مناسبة جداً للتهرب والاختباء، خصوصاً...

ـ خصوصاً ماذا؟

فقال متهكماً:

ـ خصوصاً في مثل وضعك!

ومنعتها عودة صاحبته من قول أي شيء آخر، حينذاك.

زواج مصلحة مع غارد! ستكون مجنونة إذا سمحت لبيتر أن يقنعها بهذه الفكرة الحمقاء. لكنه كان قد أقنعها بذلك ولم يعد بإمكانها التراجع الآن.

هل رغبة غارد بتملك منزل «مرج الملكة» تكفي لكي يوافق؟

ـ حسناً يا روزي، ما سبب مكالمتك إذا كنت تسعين إلى هبة أخرى مني لمؤسستك الخيرية تلك؟ عليك أن تعلمي أنني، حالياً، لا أشعر بأية رغبة في العطاء...

أخذت روزي تنظر إليه صامتة وهو يدخل الردهة. كان قلبها يخفق بقوة وكأنه على وشك أن يخترق صدرها.

لم تتذكر أنها شعرت من قبل بمثل هذا التوتر... حتى ولا

عندما علم جدها بتسللها خفية في إحدى الليالي لسرقة السمك من مزرعته مع كليم أنجرز.

كادت تغرق في تداعياتها ولكنها ما لبثت أن عادت بأفكارها إلى الواقع، بحزم.

حضر غارد مبكراً أكثر مما توقعت. حضر ببذلته الأنيقة الغالية الثمن، وقميصه القطني المنشى الناصع البياض، ولو لم يكن مألوفاً لديها بهذا الشكل لوجدت ذلك مثبطاً جداً لعزيمتها.

لكن غارد قد يكون مثبطاً حتى في ملابسه العادية، على ما حدثت نفسها. ولم يكن هذا بسبب طول قامته، حتى ولا عرض كتفيه وعضلاته المشدودة التي طالما تأوهت صديقاتها لرؤيتها. بل كان هناك شيء يتعلق بغارد نفسه... شيء معيَّن لا تدركه الحواس... هو الذي يجعله مختلفاً عن غيره من الرجال... هالة من القوة والسيطرة، من... الرجولة الخالصة التي تعترف بها روزي نفسها. كانت تشعر بها إنما لا تنجذب إليها، كما ذكّرت نفسها بحدة. لا يمكن أبداً أن تنجذب إلى غارد؛ فهو ليس نموذجها المفضل بين الرجال. إنها تحب من الرجال الرقيق الدافىء العواطف... الأليف، والأكثر... إنسانية، والأقل... الأقل هوساً.

وتنحنحت متوترة. سألها بجفاء:

ـ ماذا حدث؟ إنك تحدّقين فيَّ كأنّك تحدّقين في كلب!.

ردت عليه بحدة وألم:

ـ أنا لست خائفة منك!.

ـ أنا مسرور جداً لسماع ذلك. عليّ أن أستقل الطائرة إلى بروكسل عند الصباح، يا روزي، ولدي حقيبة يد مليئة بالمستندات لأقرأها قبل ذلك. أخبريني فقط ماذا تريدين، يا فتاتي الطيبة، إنما لا

www.elromancia.com

تتراجعي الآن قائلة إن الأمر غير هام. نحن الاثنين نعلم جيداً أنك ما كنت لتتصلي بي لو كان الأمر عادياً.

قطبت جبينها قليلاً للسخرية البادية في صوته، لكنه كان ينظر إليها بنفاذ صبر وهو يفك أزرار سترته ويحل ربطة عنقه.

وعندما ركزت نظراتها على حركات يديه، شعرت بالإنقباض في قلبها يشتد.

ـ هيا، يا روزي! لا أريد أية ألاعيب! مزاجي، حالياً، لا يحتمل هذا.

ذكّرها تحذيره الشفهي المصحوب بنظرته العنيفة الثاقبة، بزلتها القديمة مع «كليم أنجرز» وعقابه القاسي لهما.

ابتلعت ريقها متوترة. فات أوان التراجع الآن.

استجمعت شجاعتها، وجذبت نفساً عميقاً.

ـ غارد! أريدك أن تتزوجني...

* * *

٢ ـ بأمر عينيه

قالت روزي ذلك وهي تغمض عينيها بحركة آلية. لكن الصمت الذي أعقب طلبها ذاك، أرغمها على فتحهما.

ـ ماذا قلت؟

اندفعت هاتان الكلمتان من بين أسنان غارد القوية البيضاء بنعومة تبطن الشؤم، وأخذ يحدّق فيها بطريقة خيل إليها أنه سيوقع عقابه على جسدها وعظامها. تملكها التوتر وتنحنحت للمرة الثانية، وكررت قولها بسرعة وهي تكبح شعوراً غريزياً للهرب:

ـ أنا... سألتك إن كنت تتزوجني؟

ـ هل هذا نوع من المزاح؟

أدهشها الغضب الذي بدا في صوته. فقد كانت أمضت الساعات القليلة الأخيرة محاولة أن تتصور بالضبط ما ستكون عليه ردة فعله إزاء ما ستطلبه منه. أما أنه قد يغضب، فهذا ما لم يخطر ببالها. التسلية، السخرية، الازدراء، الرفض الصريح المباشر... كل هذه الأمور توقعتها، أما الغضب...

ـ كلا، هذا ليس مزاحاً. ويا ليته كان كذلك. (أضافت الجملة الأخيرة بصوت خافت) إنها فكرة «بيتر». قلت له إنها فكرة جنونية، لكنه أصرّ على أنها الطريقة الوحيدة لمنع إدوارد من أن يرث المنزل

www.elromancia.com

ويدمره. إنك تعرف شروط وصية جدي.

ـ أعرفها. لكنني لم أكن أدرك أن هذا المنزل يعني لك الكثير. ماذا حدث لكل إصرارك على عدم الزواج قبل أن تقعي في الحب، وتتأكدي من أن حبك سيكون متبادلاً؟ أم أن ذلك كان مجرد تصورات الصبا سرعان ما تبددت أمام الخوف من خسارة المنزل؟

قالت بغضب:

ـ لا، لم يكن الأمر كذلك، ولكن...

كان خلع سترته وذهب ليقف أمام المدفأة الضخمة التي كان وجودها مع زخارف السلم الأثرية، يهيمن على جو الردهة.

رأت روزي غارد ملائماً لهذا المنزل، قبل أن تحول عينيها عنه بسرعة، نظراً إلى طول قامته وهالة القوة والسيطرة التي تحيط به وهو يسير بنفس الخيلاء التي لا بد أن جدّها الأول كان يسير بها. كان يبدو وكأنه في بيته، أكثر منها هي التي كانت الغرف الفسيحة المبطنة بالخشب الداكن اللون تكاد تحجبها عن الرؤية.

ورثت روزي عن أسرة أمها من مظهرها وبنيتها الجسدية أكثر مما ورثته عن أسرة أبيها. ذلك أن أكثر صور أسلافها كانت تظهر أشخاصاً ممتلئي الجسم أقوياء العضل، بينما هي صغيرة الجسم هزيلة نحيفة كما وصفها غارد، ذات مرة، هازئاً.

لكن هذا ما زال بيتها وجزءاً منها، وبقدر كراهيتها الاعتراف بذلك، كانت تكره رؤيته مدمراً. وهي من الصدق بحيث تدرك أنه سيكون آمناً بين يدي غارد، بالرغم من مشاعرها الخاصة نحوه.

قاطعها متسائلاً:

ـ ولكن ماذا...؟ إنك تحبين هذا المنزل إلى درجة لا تريدين معها التخلي عنه، فإلى أي درجة تحبينني؟

ألقى عليها السؤال الأخير ساخراً، عارفاً الجواب مسبقاً. أجابته بعنف مستنكرة.

ـ لا! هذا غير صحيح طبعاً.

لماذا ينظر إليها بهذا الشكل، بعيني النسر الحادتين تلك، ما جعلها تشعر بمثل هذا الضيق؟

ـ أنت إذن لا تحبين أياً منا، ومع ذلك مستعدة للزواج مني للاحتفاظ بالمنزل!

أسرعت تصحح كلامه:

ـ بل لأنقذه من إدوارد و... وسيكون ذلك زواج مصلحة صورياً.

أضافت ذلك بحذر وهي تدير له ظهرها قليلاً. لسبب ما، وجدت من الأسهل عليها الكلام معه بهذا الشكل. وتابعت تقول:

ـ زواج مصلحة، ولا حاجة لأن تطول مدته. قال بيتر إن بإمكاننا ربما الحصول على فسخ الزواج، ما يجعلنا بغير حاجة إلى... ليس علينا أن...

سكتت فجأة بشكل لافت، متنبهة بقلق إلى صمته المريب الذي جعلها تستدير لتنظر إليه. قال ساخراً:

ـ اسمري... ليس علينا ماذا؟ أن نعاشر بعضنا كزوجين؟

كرهت روزي الطريقة الناعمة التي لفظ بها هذه الكلمات... متلذذاً بنطقها، وكانت واثقة من أنه يستمتع بكل ثانية من شعورها بالضيق.

ـ إذا كان المفروض في ذلك تشجيعي على الموافقة، أنت إذن لا تعرفين الكثير عن شعور الكرامة عند جنس الرجال، يا روزي. أتظنين حقاً أن هناك رجلاً، أي رجل، يرضى أن يقف أمام المحكمة ويخبر

www.elromancia.com

العالم أنه ليس رجلاً بما يكفي لأخذ زوجته إلى الفراش؟ هل تعتقدين حقاً أن أي شخص، خصوصاً ابن عمك الكريه ذاك، سيصدق قصتنا هذه وهو يعلم الرعب الذي يتملكك من فكرة الاختلاء برجل؟ آه، كلا يا عزيزتي! لستُ من الجنون بحيث أوافق على هذا الزواج الاحتيالي الذي تعرضينه عليّ!.

أخذ قلب روزي يخفق بعنف أثناء كلامه. لكنها عندما أدركت أنه لم يرفض عرضها هذا على الفور، أخذت تحدق فيه مترددة، وما زال وجهها محمراً نتيجة ارتباكها السابق. غارد فقط هو الذي يجعل ردة فعلها بهذا الشكل عندما يتحدث في هذا الموضوع. حتى عندما كان الفتيان المراهقون يُسمعونها التعليقات الوقحة الفجة، لم تكن تشعر إزاء ذلك بمثل الخجل والحرج اللذين تشعر بهما مع غارد.

استدارت تنظر إليه بإمعان. المفروض أن يقرأ المرء أفكار الشخص من عينيه، لكن هذه القاعدة لا تنطبق على غارد. لا يمكنها أبداً أن تعرف ما يفكر فيه. قالت بإصرار:

ـ لكن هذا لن يكون زواجاً حقيقياً. أعني، أننا لن...

أكمل لها حديثها عابساً:

ـ لن ننام في غرفة واحدة؟ من الصعب تصوّر ذلك حقاً! المرة الوحيدة التي أخذتك فيها بين ذراعي، كدت تقتلعين عيني.

قالت تدافع عن نفسها:

ـ لأنك أفزعتني. حملتني فجأة بذلك الشكل، بينما كان المكان مظلماً وأنا...

ـ وأنت كنت خارجة سراً مع «كليم أنجيرز»، لتسرقا صيد جدك من السلمون.

فقالت ساخطة:

ـ كان كليم وعدني منذ زمن طويل بأن يأخذني لرؤية حيوان الغرير، وإذا بك تتدخل وتفسد كل شيء. كان وعدني بأن يأخذني حالما أبلغ السادسة عشرة.

ـ أحقاً؟ أرجو ألا تكون هذه هي حجتك السخيفة آنذاك، عندما سألك أبوك! (وتابع متجاهلاً اختناق وجهها بالغضب). حلوة في السادسة عشرة، لم يعانقها أحد قط!... أنعشي ذاكرتي، يا روزي من فضلك. كم عمرك الآن؟

أجابت بانزعاج:

ـ اثنان وعشرون، تقريباً.

ـ آه!، المفروض أن لديك الآن خبرة جيدة في الغزل! على الأقل منذ رأيتك ليلة رأس السنة الماضية في حفلة آل «لويشام» الراقصة.

احمر وجه روزي وهي تتذكر الحادثة التي أشار إليها. أحد أبناء عم «لويشام»، وكان ثملاً سريع التأثر، أمسك بها عند باب الخروج وأخذ يضمّها بنزق. كان ذلك في الممر نصف المعتم والمؤدي إلى غرفة المعاطف. كانت حادثة تافهة لا ضرر منها. لكن الفتى جاء لزيارتها عصر اليوم التالي، مبدياً ندمه وأسفه لما حدث، متوسلاً إليها أن تمنحه فرصة للقيام ببداية جديدة، وهذا ما رفضته روزي بلباقة. لكنها، حتى الآن، لم تكن تعلم أن غارد شاهدهما في تلك اللحظة.

ابتعدت عنه وأخذت تذرع أرض الغرفة، متوترة الأعصاب.

ـ ما الذي يمنعك من شراء ملابس مناسبة لنفسك؟ إنك غير فقيرة. لقد ترك لك أبوك ما يكفيك تماماً. أم أن العزيز رالف، المنافق المتظاهر بالصلاح والتقوى، لا يعجبه أن يراك على هيئة امرأة بدلاً من مظهرك الطفولي غير الناضج هذا؟

استدارت روزي إليه مستنكرة بغضب:

www.elromancia.com

ـ رالف ليس منافقاً. أما بالنسبة إلى ملابسي... (وقطبت جبينها وهي تنظر إلى البنطلون الرث الذي ترتديه والكنزة التي كانت أصلاً لأبيها). إنني ألبس ما يريحني ويرضيني. ربما أنت من نوع الرجال الذين يحبون رؤية المرأة تقيّد نفسها في ملابس ضيقة لا تكاد تستطيع السير بها، متقلقلة بكعبها العالي... وأظن أن ذوقك هذا مناسب لسنك الآن!.

أضافت الجملة الأخيرة باستخفاف. قال متجهماً:

ـ إنني في الخامسة والثلاثين، يا روزي، ولست عجوزاً في الستين أكافح بيأس تقدم السن. أما عن ذوقي في الملابس، أنا شخصياً لا أرى أكثر جاذبية من المرأة الواثقة بنفسها فتلبس لا لتخفي محاسنها ولا لتظهرها. المرأة التي ترتدي الحرير أو الكشمير، الصوف أو القطن، ولكن بذوق وأناقة... أما أنت فلم تصبحي امرأة بعد، أليس كذلك يا روزي؟.

آلمتها انتقاداته وتعليقاته وجعلتها تقفز على الفور للدفاع عن نفسها قائلة بغضب:

ـ بل أنا امرأة، لكن ليس بإمكانك أن ترى هذا. إنك لا تفكر في النساء إلا من ناحية معينة، حسناً، لمعلوماتك الخاصة...

وسكتت فجأة! لماذا تدعه يغضبها بهذا الشكل؟ لماذا ينتهيان دوماً متشاجرين متجادلين عدوين؟ سألها متحدياً:

ـ ماذا «لمعلوماتي الخاصة»؟

أجابت متراجعة:

ـ آه، لا شيء!

كانت حمقاء عندما أصغت إلى بيتر. إذا كانت الطريقة الوحيدة لإنقاذ المنزل هي زواج المصلحة، كما قال، عليها إذن أن تتزوج

شخصاً آخر. أي شخص ما عدا هذا الرجل المتغطرس البغيض المخيف الواقف أمامها، يراقبها بتلك العينين الثاقبتين المتأملتين الذهبيتي اللون. قالت بمرارة:

ـ لا بأس، أنا أعرف أنها فكرة غبية، وكنت حمقاء عندما ظننتك ستوافق، مهما كان حبك لهذا المنزل. من الأفضل وضع إعلان في الصحف بطلب زوج...

ومَض شيء في عيني غارد... شيء سرعان ما تلاشى، فظنته روزي من تخيلاتها.

ـ لم أعطكِ جوابي بعد.

رفعت بصرها إليه، بينما تابع محذراً:

ـ إنك تتحدثين عن مشروع قد يكون شديد الخطر! سيشكّ إدوارد في الأمر.

ـ لكنه لن يستطيع فعل شيء ما دمت أنفذ شروط وصية جدي.

ـ إدوارد رجل داهية، وليس من الحكمة التقليل من شأنه. ثمة شيء من الخداع في خطتك هذه.

قاطعته روزي بقلق:

ـ خداع؟ ولكن...

ـ سأعود من بروكسل بعد غد. عندئذ سأعطيك جوابي. وأثناء ذلك لا تعلني شيئاً في الصحف.

حين غادر المنزل تملكها السخط. لماذا يجعلها دوماً تشعر وكأنها طفلة؟ وطفلة غبية على الأخص؟

ـ نسيت مرة أخرى أن تضعي السكر في قهوتي.

قال رالف ذلك لروزي متذمراً. ثم رفع حاجبيه الأشقرين:

ـ يبدو عليك الانشغال البالغ هذين اليومين! هل حدث شيء؟.

www.elromancia.com

ـ لا... لا شيء!.

ـ أتعلمين، يا روزي؟ من المؤسف أنك لم تبذلي جهداً أكبر في إقناع جدك بأن يتنازل لنا عن منزل «مرج الملكة»! المجد لله! سيغلق مكتب الهندسة أبوابه الأسبوع القادم وهذا سيزيد الضغط علينا. الله يعلم كم من الناس سيصبحون دون مأوى! البيت الكبير اللعين وكل تلك الغرف...

ـ نعم، نعم، أعرف هذا

وتملك روزي شعور بالذنب. لم تكن حدثت رالف عن شروط وصية جدها. ومنذ أوضح إدوارد أنه يتوقع أن يؤول إليه المنزل، أوحت روزي لرالف بذلك أيضاً.

عند إعلانها رغبتها في التطوع في المأوى، علمت أن أباها تملكه شيء من القلق. ولا حاجة للقول بأن غارد هو الذي تكفل آنذاك، بتحذيرها من أن رالف قد يطمع في البيت ليضمّه إلى المأوى.

ـ لن يفعل رالف شيئاً كهذا.

قالت ذلك، حينذاك، ساخطة. صدّقت هذا... صدقته... وما زالت تصدقه، وإذا كان رالف مستاءً اليوم لأنها لم تبذل جهداً كافياً لإقناع جدها بالتخلي عن المنزل للمبرّة، فإنها تتفهم سبب ذلك.

لا يمكنها أبداً أن تدخل ذلك المبنى القديم المتهالك القذر القائم في ضواحي المدينة، الذي هو المأوى، من دون أن تشعر بغصة.

بذلوا جميعاً غاية جهدهم لجعله صالحاً للسكن قدر الإمكان، لكن غرفه ما زالت تذكرها بغرف مدرستها الداخلية التي انتسبت إليها عندما عادت مع أبيها من ألمانيا إلى إنكلترا حيث كان يخدم في سلك الجيش. لم تمض في تلك المدرسة مدة طويلة، لكنها تركت في نفسها أثراً لا يمحى.

في بداية عملها في المأوى، وصلت ذات صباح وصندوق سيارتها مليء بالزهريات، والمقعد الخلفي مغطى بالأزهار. كان رالف رآها وهي تضع آخر زهرية في المكان المناسب. حتى الآن ما زالت تجفل كلما تذكرت مبلغ غضبه حينذاك، وهو يصيح فيها:

ـ إنك تبذرين النقود على الأزهار بينما لا نكاد نحصل على ما نشتري به طعاماً لهم!.

لم تقترف تلك الغلطة قط بعد ذلك، لكن تقشف المأوى كان يثقل، على نفسها. يضاف إلى ذلك مشهد الأحداث المشردين الذين يتوافدون عليهم.

لكنها اليوم تشعر بالذنب لأن أفكارها منشغلة بمشاكلها الخاصة أكثر منها بأولئك المشردين! سيعود غارد عصر هذا اليوم. ماذا سيكون قراره يا ترى؟ وماذا تريد هي أن يكون قراره؟

كانت تعلم جيداً ما سيقوله رالف لو أنها طلبت منه النصيحة. الجزء العصري الواعي منها يوافقه على رأيه؛ إذ هناك أشياء أهم بكثير من مجرد منزل. هناك أناس، إخوتها في الانسانية، بحاجة إلى أكثر من مبنى. ومع ذلك، عندما سارت حول المنزل، وهو أمر وجدت نفسها تقوم به كثيراً هذه الأيام، أدركت ذلك الجهد البشري المبذول بعناية وحب لتشييد هذا البناء. لم تكن الزخارف هي التي جعلتها تشعر بالذنب لفكرة هدم البيت، وإنما معرفتها بالجهد المبذول في أعمال النحت. بإمكانها الآن، إذا هي أغمضت عينيها أن تتخيل نفسها هناك تشم رائحة الخشب اللاذعة الطازجة، وتشعر بصمت التلاميذ وهم يراقبون ما يفعله معلمهم. بإمكانها أن تتخيل اللذة والزهو في وجوههم عندما يُسمح لهم أخيراً بإنجاز حصتهم من العمل. وعندما تمرّ يدا المعلم الخبيرتان على نحتهم وزخارفهم

لفحصها وإجازتها يمسكون أنفاسهم وينتظرون قراره.

الجص المزخرف على السقوف، الأثاث في الغرف... كل ذلك آيات على إبداع الانسان وعلوّ همته!

أما رالف، فهو يرى دون شك، الناحية الأخرى من ذلك. يرى الفتيان الذين أصيبوا وبترت أعضاؤهم فطردوا من العمل ليموتوا جوعاً، العمال بأجورهم الزهيدة التي يدفعها لهم مستخدموهم الأغنياء.

ـ ماذا حدث؟ هل حبيبك يشغل بالك؟

التفتت روزي صوب فتى نحيل كان ينظر إليها، متكلّفة الابتسام، متجاهلة قول رفيقه وهو يطلق ضحكة نصف مكبوتة:

ـ لو كان ذلك صحيحاً، أراهن على أنها ما كانت بنصف هذه التعاسة البادية عليها الآن.

لم يخجلها هذا التعليق، خلافاً لما تشعر به مع غارد. سألت الفتى الأوّل متجاهلة كلامهما:

ـ ألم تسمع خبراً جديداً عن تلك الوظيفة التي وعدوك بها، يا «ألان»؟

ـ لا... ولا أظنني سأسمع.

ـ يمكنك أن تحاول الحصول على مؤهلات. اذهب إلى مدرسة ليلية.

كانت تعلم مسبقاً جوابه، ولهذا لم يدهشها أن يهز الفتى رأسه رافضاً نصيحتها. عندما يخيّب المجتمع أمل الشخص، كما خيب أمل هؤلاء الأحداث، يصبح من الصعب إصلاح الأمر. أخذت روزي تفكر في ذلك وهي تنظر إليهما ينطلقان، متبخترين، في اتجاه غرفة التلفزيون.

بعد ذلك بساعة، أخذ قلبها يخفق، وهي في طريقها إلى البيت، مفكرة في قرار غارد. عندما أوقفت سيارتها في الفناء خلف منزلها وجدت سيارة لا تعرفها واقفة هناك.

أخذت تتأمل السيارة الرولز ـ رويس الحمراء بدهشة، ثم دخلت المنزل من المدخل الخلفي خلال ممرات متشابكة، مارة بمجموعة من الغرف الصغيرة المعتمة.

سمعت أصواتاً في الغرفة الأمامية فأجفلت حين ميزت واحداً منها. إنه إدوارد، إبن عم أبيها! ما الذي يفعله هنا؟ والأهم من ذلك، كيف دخل؟

جذبت نفساً عميقاً، ثم دفعت الباب ودخلت إلى الردهة.

رأت إدوارد واقفاً، وظهره إليها، وصلعته تلمع تحت الثريا المضيئة، فيما هو والرجل الذي معه يتأملان الثريا فوقهما.

كان الرجل يقول مهمهماً:

ـ... أظن بإمكانها أن تجلب مبلغاً لا بأس به، رغم أن هذا النوع من الأشياء غير مطلوب الآن. إنها كبيرة الحجم وغالية الثمن. ربما يكون من الأفضل شحنها إلى الخارج بواسطة وكيل...

وسكت فجأة عندما التفت ورأى روزي. أشار إلى إدوارد ينبهه إلى وجودها.

ـ آه روزي!...

لم تنخدع روزي برقة إدوارد ولطفه. لم يحدث هذا قط. كانت تشارك أباها وجدها كراهيتهما وقلة ثقتهما به.

سألته متجاهلة مظهر المودة الزائف نحوها:

ـ ما الذي تفعله هنا، يا إدوارد؟

تنحّى رفيقه قليلاً بينما تغيرت ملامح إدوارد وهو ينظر إلى حيث

www.elromancia.com

كان رفيقه يتأمل زخارف السلم، ثم قست نظراته حين رأى عداء روزي نحوه، فقال بنعومة وخبث:

ـ أتأكد من ميراثي فقط.

قالت غاضبة:

ـ إنه لم يصبح ميراثك بعد.

هز إدوارد كتفيه رافضاً كلامها وقد بدا الانفعال على وجهه السمين. كان إدوارد، خلافاً لأبيها وجدها، ابتدأ يسمن منذ توسطه في السن.

قال أبوها مرة إن لإدوارد طبعاً سيئاً للغاية. وفي المناسبات القليلة التي قابلته فيها، كان التوتر ينضح من وجهه، ما أثبت كلام أبيها، لكنها المرة الأولى التي تختبر فيها سوء طباعه مباشرة.

قال بغضب:

ـ ربما لم يصبح بعد، لكنه سرعان ما يصير إليّ. ولن يمكنك أنت أو أي شخص آخر عمل شيء في هذا الموضوع. للمرة الأولى يتصرّف جدّك العجوز خلافاً لمصلحته! كم تظن مقدار المبلغ الذي تجلبه تلك الزخارف، يا تشارلي؟

صاح بذلك يسأل الرجل الآخر، وهو يبتسم راضياً لرؤية ما ارتسم على ملامح روزي من تعبير.

عندما رأته وسمعته، تلاشت من ذهنها أيّ فكرة لمناشدة الناحية الطيبة من طبيعته. أدركت أن ليس لديه ناحية طيبة، وهو فعلاً سيستمتع بتدمير المنزل.

سمعت الباب الخارجي الثقيل يقرقع وكأن ثمة من فتحه. استدارت تنظر بحذر، لكن القادم لم يكن «شريك عمل» آخر لإدوارد، بل كان غارد.

تقدم إلى المدفأة القائمة بعد المدخل مباشرة، وأخذ يتأمل المشهد البادي أمامه، مقطباً جبينه.

رأت روزي نظرة العداء والخشية تلتمع في عيني إدوارد، لكن غارد لم يكن ينظر إليه، وإنما إليها... ينظر إليها بطريقة لم تتصورها قط منه نحو امرأة... وخصوصاً نحوها هي. أدركت ذلك باضطراب أدار رأسها.

حولت وجهها متجاهلة تلك النظرة الملتهبة. منذ متى كانت عينا غارد تتحولان من ذلك اللون الذهبي البارد إلى مثل هذا الكهرمان الملتهب؟ أين تعلم النظر إلى المرأة بهذا الشكل الذي يجعلها وكل من في الغرفة معها، يشعرون برغبة غارد فيها؟ لكن غارد لا يرغب فيها، حتى إنه لا يشعر نحوها بأية مودة... إنه...

قالت بارتباك وهي ترفع يدها إلى عنقها تخفي النبض الخافق هناك بعنف:

ـ غارد، لم... لم أظنك ستعود إلا بعد... بعد وقت طويل.

ـ هذا صحيح، لكنني لم أصبر على فراقك طويلاً.

حملقت روزي فيه، شاعرة بجلدها يحترق. ما الذي يهدف إليه غارد؟ لا بد أنه يعلم، كما تعلم هي، أن...

جمدت ذاهلة وهي تراه يتقدم منها، ملقياً بحقيبة أوراقه جانباً، ثم يضمها إلى صدره بشدة وهو يتمتم بصوت أجش:

ـ رباه، كم اشتقت إليك!.

ابتلعت روزي ريقها متوترة، فقال غارد بمرح:

ـ ألم تبشري إدوارد بعد، يا حبيبتي؟

تبشره؟ أي بشارة تلك؟ وانتفضت بعنف محتجة على تصرفه، وأوشكت كلمات الغضب أن تندفع من بين شفتيها لكنها لم تستطع أن

تنطق بكلمة، لأن غارد انحنى عليها بسرعة، محذراً إياها من قول أي شيء.

غارد يحتضنها! هل هذا ما فعله حقاً؟ لم تشعر بأنه فعل حقيقي. فتحت عينيها ونظرت في عينيه باضطراب. كانتا لا تزالان غير مألوفتين لديها، بلونهما الكهرماني الذي يثير خفقان قلبها وسرعة نبضها، لم تكن تتصور أنها ستواجه يوماً ما مثل هذا الموقف.

أدارت رأسها موجة من الأحاسيس فيما كان غارد يضمها بشوق مفتعل.

بقيت عيناها مفتوحتين، وكذلك عيناه اللتان كانتا تنومانها مغناطيسياً لتطيع أوامره الصامتة، وقد تملكتها قشعريرة غير عادية من الأحاسيس. ثم تملكها الذعر؛ وبصرخة احتجاج خافتة، أبعدته عنها.

قال وكأنها قالت له شيئاً:

ـ الحق معك! فهذا ليس الزمان ولا المكان المناسبين.

ـ ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟.

حوّلت روزي عينيها عن وجه غارد، ورأسها يدور، والتفتت لتنظر إلى إدوارد. سأله غارد بأدب:

ـ ألم تخبرك روزي أننا سنتزوج وقد أعددنا كل شيء؟!.

قال ذلك وهو يشيح بوجهه عن إدوارد، متجاهلاً غضبه المتصاعد. كان يتحدث ويتصرف كأن إدوارد غير موجود، كأنهما بمفردهما... كأنهما...

ـ سيكون عرسنا كما تحبين أن يكون. صغيراً، هادئاً، في الكنيسة...

في الكنيسة! أجفلت روزي لهذا، لكنها هذه المرة استطاعت كبح كلماتها الذاهلة.

كان إدوارد يتوعد بجانبهما قائلاً بغضب:

ـ لا يمكنكما القيام بذلك! إني أعرف ما تهدفان إليه. لا تظناني لن...

من دون أن يرفع غارد صوته أو رأسه، ومن غير أن يحوّل نظره عنها، ما أثار إعجابها، تمكن من أن يسكت إدوارد ويستولي على انتباهه، بقوله الهادىء:

ـ إدوارد... أظن حان وقت ذهابك، سأودعك إلى الباب.

ابتعد غارد عنها الآن، ولو كان الوقت مختلفاً، ربما سرّها أن ترى العبوس على ملامح إدوارد، والاضطراب يتملك صديقه الذي كان يطلب أن يعرف بالضبط ما الذي يجري ولماذا وضعه إدوارد في مثل هذا الموقف الحرج.

قال إدوارد يتوعد غارد قبل خروجه:

ـ لن تقدر على ذلك. إنك لم تتزوج بعد، و...

قاطعه غارد بدمائة وهو يغلق الباب خلفه بحزم:

ـ وداعاً!

ـ هل... هل كنت تعني ذلك حقاً؟ أعني أننا سنتزوج؟

سألته روزي هذا وقد جف فمها خلال الصمت الثقيل الذي تلا خروج إدوارد.

قال بهدوء:

ـ نعم! ما بك يا روزي؟ هل غيرت رأيك؟

سألها هذا وهو يعود فجأة إلى سلوكه الطبيعي الساخر نحوها.

نظرت روزي إلى السلم، ثم الثريا فوقها، وهزت رأسها، غير واثقة من القدرة على الكلام.

* * *

٣ ـ كيف يعامل الرجل المرأة؟

سألت روزي غارد، وهي تنهض وتسير لتقف عند نافذة المكتبة.

ـ هل من المفروض أن يكون احتفالاً كنسياً؟

كانت فوجئت بحضوره منذ نصف ساعة. ذلك أن الساعة التاسعة من صباح يوم السبت ليست وقتاً معتاداً لاستقبال الزائرين.

ـ زائرين؟

قال غارد ذلك بلهجة مطاطة عندما أخبرته بذلك. وبسرعة، تخللت شعرها الجعد بأصابع إحدى يديها، بينما حاولت خلسة أن تلعق ما سال على أصابع اليد الثانية من المربَّى.

في حياة جدها، كانت وجبة الفطور، خصوصاً أثناء عطلة نهاية الأسبوع، أمراً شبه رسمي، يقدم في غرفة الطعام. ولكن، منذ أن أصبحت وحدها، تعودت أن تأكل في المطبخ الواسع. كما أصبحت السيدة «فرينتون»، تأتي مرة واحدة في الاسبوع بدلاً من الحضور يومياً للتنظيف والطبخ. ذلك أن روزي أخذت تشعر بالذنب لاستخدامها امرأة في أعمال الطبخ والتنظيف بينما تستطيع أن تفعل ذلك بنفسها.

ـ عزيزتي روزي، نحن على وشك الزواج، والمفترض في نظر الناس أننا غارقان في الحب. ليس الغريب زيارتي الباكرة، بل عدم

قضائي الليل بطوله هنا.

تملك روزي الضيق عندما شعرت بحمرة الخجل تصبغ وجهها. قال:

ـ برنامجي مليء بالعمل، وهناك أمور معينة علينا أن نناقشها قبل أن يعلم سائر الناس خبرنا.

سألته غاضبة وهو يتبعها إلى غرفة المكتبة:

ـ ولماذا على الآخرين أن يهتموا بما نفعل؟ أم أنك تعني بسائر الناس صديقاتك العزيزات؟

لكن النظرة التي رمقها بها سرعان ما أسكتتها.

كان غارد، مثلها، يرتدي ثياباً عادية. لكن مشيته كان لها تأثير مغناطيسي غريب. شعرت بالارتياح عندما جلس أخيراً على إحدى كراسي المكتبة.

أجابها الآن عن سؤالها الأساسي:

ـ نعم، هذا يهمُّهنَّ! ما هو اعتراضك؟.

ـ حسناً، ذلك فقط...

وهزت كتفيها بضيق، لا تريد أن تعرض نفسها للمزيد من سخريته. فهي تشعر على نحو ما بأن من الخطأ، إجراء الزواج في الكنيسة، بينما يعلمان تماماً أن زواجهما هو مجرد مصلحة. قال يلحّ عليها:

ـ ذلك فقط ماذا؟.

ـ إنه فقط... أن العرس في الكنيسة مربك، بالغ الضوضاء والتعقيد و...

احمر وجهها أمام نظرته الباردة. في وضوح هذا النهار الصافي المشمس، بدا مستحيلاً أن تكون هاتان العينان الباردتان هما نفس

www.elromancia.com

العينين اللتين رأتهما الليلة الماضية تتحرّقان رغبة وشوقاً. حوّلت عينيها عنه بسرعة. كانت حدثت نفسها الليلة الماضية، بعد ذهابه، بأن ما حدث بينهما من عناق لن يتكرر. غارد فعل ذلك بسبب إدوارد، وبإمكانها أن تشكره على عمله... لكنه أمر لا ينبغي أن يتكرر على الإطلاق.

- كفى مراوغة يا روزي. إنك لا تريدين الزواج في الكنيسة لأنه زواج غير حقيقي. هذه هي شخصيتك ومفاهيمك المشوّشة عن الحياة. حاولي أن تفكري في الأمور بمنطق. أنا وأنت، على اختلاف طبعينا، لدينا مكانة معيّنة في المجتمع، سواء أحببت ذلك أم لا. إدوارد لن يكون مسروراً لما سنقوم به، ونحن نعلم ذلك، ولا فائدة من زيادة شكوكه. تفضلين احتفالاً صغيراً بسيطاً، ولا ضرورة لأن يكون كنسياً، أليس كذلك؟ أما بالنسبة للضوضاء والتعقيدات، دعي ذلك لي. من الأفضل أن تطلبي من السيدة فرينتون أن تأتي إلى هنا للعمل في البيت طوال النهار.

- لماذا؟ إنني لا أستعمل سوى بضع غرف و...

- هذا صحيح. ولكن بعد الزواج علينا القيام بواجبات الضيافة. لديّ شركاء في العمل يريدون أن يتعرفوا إلى عروسي. فإذا لم تكوني مستعدة لترك عملك في الملجأ لتبقي في المنزل طوال النهار...

تترك عملها في الملجأ؟ وقالت بعنف:

- لا! بكل تأكيد!.

- اتصلي إذن بالسيدة فرينتون وأخبريها بأننا سنتزوج وبأنني سأنتقل إلى هنا واطلبي منها أن...

- تنتقل إلى هنا؟

فقال ساخراً:

- من الطبيعي بالنسبة إلى زوجين أن يعيشا تحت سقف واحد. إلا إذا كنت تريدين الانتقال إلى شقتي. بالرغم من...

شقته؟ أخذت روزي تحدق فيه. عندما عرض عليها بيتر في البداية فكرة الزواج من غارد لم يخطر ببالها سوى ذاك الحرج من مفاتحته في الأمر.

قالت بذعر:

- لكننا لا يمكن أن نعيش معاً!.

- لا يمكننا ماذا؟ آه، هيا، يا روزي، كم تبلغين من العمر؟ لا يمكنك أن تكوني بهذه السذاجة! لا يمكنك أن تقنعي الناس بأن هذا زواج حقيقي إذا كنا نعيش في منزلين منفصلين. كوني عاقلة!

قالت بضعف وهي تسمع نبرة السخط في صوته:

- لم يذهب تفكيري، في الواقع، إلى ذلك الحد. أردت فقط أن...

قاطعها بلهجة لاذعة:

- أردت فقط إنقاذ البيت من إدوارد. أعلم هذا. إنك في الثانية والعشرين من عمرك تقريباً، يا روزي. ألم يحن الوقت بعد لكي تكبري؟

أجابت ساخطة:

- إنني كبيرة. وأنا راشدة الآن، يا غارد و...

سألها بنعومة:

- و... ماذا؟ امرأة؟.

- نعم!

قالت ذلك بعنف وهي تنظر إليه يروح ويجيء في الغرفة، ثم يرمقها بنظرة آمرة:

www.elromancia.com

ـ استديري وانظري إلى نفسك في تلك المرآة، ثم أخبريني بما ترين.

فكرت في أن ترفض، لكنها عندما تذكرت مبلغ السرعة والسهولة التي قهرها بها الليلة الماضية، امتنعت عن ذلك. وهكذا اضطرت للقيام بما طلبه منها، وأخذت تحدق، ليس في صورتها في تلك المرآة الضخمة، بل فيه هو.

كم هو طويل بالنسبة إلى قصر قامتها! وما أقوى عضلاته الواضحة من تحت قميصه الصوفي الرقيق! أما هي فكان قميصها فضفاضاً وفتحة عنقه واسعة، ما كشف بوضوح عن رقة عظامها الهشة. أبرز القماش الصوفي الأسود الناعم، بشكل ما، بياض بشرتها الشفاف، واستدارة صدرها.

قال ساخراً:

ـ امرأة! إنك تبدين فتاة صغيرة! قد تصبحين امرأة بعد سنوات، يا روزي، لكنك ما زلت مختبئة خلف طفلة بمظهرها وسلوكها. (ومد يده محاولاً ملامسة فمها، لكنها أمسكت بمعصمه تبعد يده عنها، وقد أظلمت عيناها غضباً وذهولاً). لا أحمر شفاه، ولا أي نوع من مواد التجميل.

أجابت باحتجاج:

ـ إنه صباح السبت.

أما ما لم تخبره به، أو ما لم تستطع أن تخبره به، فهو أنها غادرت سريرها للتوّ، وأنها لم تستطع النوم في الليلة الماضية... لأنها.. وأحست بأثر لمسته تحرق شفتها، فعضتها بحركة غريزية.

تابع غارد يقول بقسوة:

ـ لا زينة على الوجه! وتتعمدين بملابسك هذه إخفاء معالم

الأنوثة. هل سبق لرجل أن لمسك؟

ـ ليس عليّ أن أعتذر لك أو لأي شخص آخر لعدم رغبتي في إطلاق العنان لنفسي في علاقات عابرة. وهذا لا يعني أنني غير ناضجة، أو أنني أقل من امرأة.

ـ هذا صحيح. لكن احمرار وجهك، وهربك مني، وجهلك الواضح بالجنس الآخر... كل هذا يقول إنك لست امرأة، يا روزي. وسيقولون بالتأكيد إنك غير متزوجة.

قالت بحدة وهي تشيح بوجهها لئلا يرى احمرار وجهها أو الألم الذي خلفته كلماته:

ـ حسناً، لا يمكنني فعل شيء بالنسبة لهذا الأمر. أليس كذلك؟ إلا إذا اقترحت عليّ أن أخرج وأفتش عن مغامرة طائشة كي لا أحرجك بنقص... أنوثتي وخبرتي!.

ـ يا إلهي! لو رأيتك...

شهقت وهي تراه يمسك بها يهزها بعنف، ثم يتركها فجأة. لم تجد وقتاً لتفتح فمها احتجاجاً على خشونته هذه، وهو يقول غاضباً:

ـ إننا لا نقوم بلعبة، يا روزي! بل هي حقيقة... وحقيقة خطرة للغاية! هل فكرت في ما قد يحدث لي ولك إذا ما أقام علينا إدوارد دعوى احتيال؟

ـ إنه لن يفعل... لا يستطيع أن يفعل هذا.

ـ لقد رأيت مظهر وجهه، كما رأيته أنا عندما علم بأنه لن يرث المنزل. أي تلميح إلى أن هذا الزواج زائف، يجعله يسرع في إرسال محاميه إلينا...

قالت وهي ترتجف:

ـ لكنه لن يستطيع أن يعلم. لا يمكنه إثبات شيء.

www.elromancia.com

ـ نعم، هذا صحيح إذا تمسكنا بالحذر، وطالما تتذكرين أننا أصبحنا تقريباً زوجين، وغارقين في حب بعضنا البعض.

ابتلعت روزي ريقها متوترة. إن لديها مخيلة جيدة... مخيلة جيدة جداً... لكن أن تحاول تخيل نفسها غارقة في حب غارد... ثم تحاول أن تتصوره يبادلها نفس ذلك الحب!

ـ هل ثمة انتقادات أخرى؟

قالت روزي ذلك بتحدٍ، مقاومة اليأس الذي أخذ يتملكها. ألقى عليها غارد نظرة هبط لها قلبها، وهو يقول محذراً:

ـ لست في موقف أحسد عليه.

وفجأة، شعرت روزي بأنها نالت ما يكفي. فقالت:

ـ لا يتوجب عليك القيام بذلك، كما تعلم. ليس هناك من يرغمك على الزواج بي، كما أنني أنا أيضاً لا أريد الزواج بك. إسمع، لماذا لا ننسى كل شيء، يا غارد؟ لم لا...؟

فقاطعها بعنف:

ـ لماذا لا تحاولين التفكير قبل أن تفتحي فمك الصغير الحلو هذا؟

ولسبب ما، بدا أكثر غضباً من ذي قبل، كما لاحظت روزي، بينما تابع يقول:

ـ هل نسيت شيئاً؟ إدوارد يعلم جيداً أننا سنتزوج.

ـ وماذا في ذلك؟ يمكننا الادعاء بأنه شجار بين عاشقين. وهذا يحدث كثيراً. وكان عليك أن تعلم ذلك.

من الغريب أن تأثير تهكمها هذا عليه كان أقل من كلامها السابق عن عدم الزواج. قال بجفاء:

ـ العاشقون يعودون فيتصالحون، على الأقل حتى ينفصلوا نهائياً

عن بعضهم البعض. كلا يا روزي، إننا ملتزمان الآن. فات وقت تغيير الرأي.

ـ كان بيتر على صواب في شيء واحد على الأقل. وهو أنك تريد هذا المنزل بأي ثمن، وهذا ما يجعلك تقدم على هذا الأمر في سبيله.

وهزت كتفيها مقهورة وهي تدير له ظهرها، محاولة تجاهل خيبتها عندما لم تفكر في مستقبلها المباشر. سمعته يقول برزانة:

ـ نعم، هذا صحيح! وبالمناسبة، تحدثت مع الكاهن، واتفقنا على أن احتفالاً بسيطاً وسط الأسبوع هو الأفضل.

ـ لماذا فعلت! ولكن...

ـ أنت التي عرضت عليّ الزواج.

كبحت روزي صرخة أوشكت أن تفلت منها. مهما قالت أو فعلت، بإمكان غارد أن يتغلب عليها حيلة وخداعاً. حسناً، يوماً ما... يوماً ما ستكون هي التي تتغلب عليه. تعهدت لنفسها بذلك.

سألته بتهكم لاذع:

ـ هل عينتما يوماً، أنت والكاهن؟ أم أنه مسموح لي برأي في ذلك؟

قال متجاهلاً تهكمها:

ـ نعم، يوم الأربعاء الذي يتلو الأربعاء القادم.

ـ بهذه السرعة؟ ولكن...

ابتلعت روزي احتجاجها وكبحت إحساساً قوياً بالخشية والارتياب.

ـ لا فائدة من تأخير الأمور. ليس أمامنا سوى شهرين نحقق فيهما شروط وصية جدك، وأمامي عدة رحلات عمل. وفي الواقع،

www.elromancia.com

عليّ أن أعود إلى بروكسل في اليوم التالي للزفاف، ما يعني أننا، لسوء الحظ، لن نتمكن من القيام برحلة شهر العسل التقليدية.

وعندما رأى ما ارتسم على وجه روزي، ضحك ساخراً وقال:

ـ نعم، فكرت في أن هذا قد يعجبك. كوننا سنتزوج بسرعة، يعني أننا لسنا بحاجة إلى دعوة أناس كثيرين، وليس منا من له أسرة كبيرة. أما حفلة الاستقبال فسنقيمها في ما بعد. وكما قلت لك، يمكنك ترك كل الترتيبات لي، عدا شيئاً واحداً.. ثوب زفافك..

نظرت إليه بارتياب، متكهنة بما هو آت:

ـ ثوبي؟ إنني لن أضيع نقودي على ثوب زفاف.

ـ ماذا ستلبسين إذن؟ لا أظنك سترتدين هذا الذي عليك الآن؟

حملقت فيه تقول:

ـ لا تكن سخيفاً. سوف...

ـ اسمعي يا روزي. لن أضيّع وقتي في الجدل معك. كان لأسرتك، ولا يزال، مكانة جيدة في المجتمع، وهي تعني الكثير جداً بالنسبة لجدك. يعجبني فيك أنك فتاة عصرية تنفقين ثروتك الموروثة في سبيل مبادئك. ولكن علينا أحياناً أن نصل إلى حل وسط بين مبادئنا ومتطلبات الآخرين.

ـ أتعني أنك تريدني أن أرتدي ثوب الزفاف التقليدي كيلا أسبب لك الخجل؟

ـ لا. ليس هذا ما أعنيه.

جعلها غضب صوته تنظر إليه مباشرة. رأت أنها أغاظته حقاً. كان وجهه مكفهراً وشفتاه متوترتين تنذران بالشر. وحتى اقترابه منها كشف عن نفاذ صبره.

ـ لا أهتم مثقال ذرة إذا أنت وقفت في الكنيسة مرتدية كيس

خيش، إذ يبدو واضحاً تماماً أن هذا ما تريدين. ما بك يا روزي؟ هل تخشين أن بعض الناس، شخصاً ما، لن يفهم تماماً الدافع وراء هذا الزواج؟ وأن ذلك الشخص قد لا يدرك التضحية الكبرى التي تقومين بها؟ حسناً، دعيني أحذرك الآن، يا روزي، حتى إذا أنت فكرت في أن تخبري رالف ساوثرن بالسبب الحقيقي لهذا الزواج...

رالف؟ ما هذا الذي يتحدث عنه غارد؟ ولماذا تخبر هي رالف بشيء من هذا القبيل؟ إنها تعرف مسبقاً ردة فعله إذا هي فعلت. والازدراء الذي سيشعر به نحو رغبتها في حماية وحفظ المنزل...

تابع غارد يقول متجهماً:

ـ إذا ظننت أنني...

هزت روزي رأسها وقد تبددت من نفسها كل رغبة في القتال:

ـ لا بأس، يا غارد. سأرتدي ثوب زفاف حقيقي.

قالت ذلك بجفاء. كانت تعلم أن عينيها امتلأتا بالدموع، ورغم محاولتها لإشاحة وجهها، إلا أن غارد لاحظ دموعها. سمعته يشتم بصوت خافت ثم يقول بخشونة:

ـ لا بأس! آسف إذا كنت سببت لك ألماً بشيء قلته. إنما عليك أن تدركي أن...

قالت بغضب وهي تغالب دموعها:

ـ لا، إنه ليس... ليس بسبب شيء قلته. أنا أعلم مسبقاً رأيك بي يا غارد. المسألة هي أنني كنت دائماً أتصور.

ورفعت رأسها غير مدركة مبلغ الضعف البادي عليها والتردد في صوتها.

ـ أتصور أنني عندما أتزوج... عندما أختار ثوب زفافي... سيكون ذلك... (وغصّت بالدمع) سيكون لرجل يحبني... لرجل

www.elromancia.com

أحبه.

رأت وجه غارد يتوتر. لعله ليس كما كانت تظن وتتصور... ربما هو أيضاً، في أعماقه، تصور ذات يوم أنه سيتزوج لأجل الحب. وعادت تقول، محاولة التظاهر بعدم الانفعال:

- ومع ذلك، أظن بإمكاني أن أفعل في...

أكمل غارد كلامها بخشونة:

- في المرة القادمة.

لم تعرف روزي ما الذي قالته فأغضبه بهذا الشكل الواضح. انفجرت فيه تقول متحدية، متجاهلة الغريزة التي أوحت إليها بأن ما تفعله هو شيء خطر:

- ربما تظنني غبية مثالية للغاية وشاعرية ساذجة. نعم أنا كذلك حقاً، يا غارد! ربما عندما أصبح في مثل سنك، سأشاركك الرأي بأن الحب المتبادل ليس مهماً، وأنه شيء يثير السخرية... لكنني لا أستطيع الآن منع نفسي من هذه المشاعر. ولأنك لا تشعر بالشيء نفسه...

قاطعها بلهجة لاذعة:

- أنت لا تعلمين شيئاً عن مشاعري الحالية، وعما سبق أن شعرت به واختبرته...

أحست بحرارة تحرق جلدها وهي تلمس الحقيقة في ما يقول وما لم يقل. كان غارد رجلاً بالغ الخبرة والجاذبية ومحترم المشاعر، ولا بد أن هناك نساء.. أو امرأة... في حياته، جذبته روحاً وجسداً. وبشكل ما، نبهها تجاوبه هذا، إلى هذه الحقيقة.

طوال مدة معرفتها به، كانت تشعر بأنها مرغمة على محاربته ومقاومة رغبته في السيطرة، لكنها الآن تراه مختلفاً. وبدلاً من أن

تسأله لماذا، بعد خبرته بتلك المشاعر، لا يزال عازباً، كبحت تلك الرغبة في التحدي. سمعته يقول بعد أن أشاحت بوجهها عنه:

- دعيني أحذرك، يا روزي! لا أريدك أن تبحثي عن الحب الشاعري المثالي أثناء زواجك بي! عليك أن تؤجلي هذا، مع الأسف.

نظرت إليه غير واثقة. هذا النوع من الكلام كان يقوله عادة بسخرية لاذعة. إنما الآن لم يكن ثمة أثر للهزل أو السخرية في عينيه. نادراً ما كانت تراه رزيناً إلى حد التجهم، كما هو الآن، ما جعلها تتمسك بالحذر.

- لاستمرار هذا الزواج، أمام الآخرين، أنا عاشقك وحبيبك بكل ما في هاتين الكلمتين من معنى.

إنَّ فتور صوته وبرودته سلبا كلماته كل إحساس. ومع ذلك، شعرت روزي بجلدها يلتهب، وتحركت مخيلتها، عدوّتها اللَّدودة عندما تصل إلى غارد، تستعيد الكلمات التي استعملها... العاشق، الحبيب. ارتجفت فجأة، محاولة أن تنبذ تلك الصور التي خلقتها مخيلتها البالغة النشاط، صور شخصين، عاشقين، متعانقين بلهفة بالغة.

نبذت روزي تلك الصور من ذهنها بسرعة، وقالت غاضبة:

- لا حاجة بك للقلق. لن أعمل شيئاً يشوّه صورتك المعروفة في مجتمعك. أليس كذلك، يا غارد؟ العاشق الأسطوري الشهير يتزوج امرأة لا تريده...

رد عليها متجهماً:

- ليس صورتي، كما تسمينها، هي ما يهمني، وإنما سمعتي المهنية وكذلك سمعتك. أنت تدركين أن ما نقوم به، أنا وأنت، هو

www.elromancia.com

عملية غش واحتيال، أليس كذلك؟ أما بالنسبة إلى زواجي من امرأة لا تريدني كما تقولين... فأنت لست امرأة، يا روزي، بل طفلة، وأشك في أنني سأجد صعوبة في العثور على سلوى في مكان آخر، أليس كذلك؟

لم يكن يضاهيه أحد في الغطرسة، كما أدركت ثائرةً وهو يبتعد عنها ويمدّ يده إلى جيب سترته الداخلي. قال بلهجة واقعية وهو يناولها علبة مجوهرات صغيرة.

ـ ستكونين بحاجة إلى هذا.

فتحتها روزي بأصابع مرتجفة، وإذا بشهقة صغيرة تفلت من بين شفتيها وهي ترى الخاتمين داخلها. خاتم الزواج كان عادياً بسيطاً من الذهب. أما خاتم الخطبة الذي يتلاءم معه.. وأخذت تحدق في حجر الياقوت الأزرق المحاط بأحجار مربعة متألقة من الماس! قالت بدهشة:

ـ إنها... رائعة.

كان حجر الياقوت كثيفاً داكن الزرقة، بنفس لون عينيها ما أدهشها وهي تتأمله. قالت بتردّد:

ـ لا أستطيع لبسه، يا غارد... إنه... إنه باهظ الثمن.

أجاب بحزم:

ـ بل يجب عليك ذلك. إن هذا ما يتوقعه الناس... ويتطلعون إليه.

أخذت تتساءل عما إذا كان اختيار لون الياقوت متعمداً، أم أنه قرار عشوائي توصل إليه بسرعة وضيق دون أن ينتبه إلى الشبه بين لونه ولون عينيها.

ـ أعطيني يدك.

فعلت ذلك كارهة، وهو يدخل الخاتم في إصبعها بحزم، ثم قالت بأدب:

ـ إنه... إنه رائع جداً. شكراً لك.

ـ هل هذا أحسن ما بإمكانك صنعه؟ صوتك أشبه بصوت صبي يشكر رجلاً يمنحه مزيداً من مصروف الجيب. من المتعارف عليه أن تشكر الخطيبة خطيبها على مثل هذه الهدية بطريقة أكثر حرارة.

كان ينظر إلى شفتيها وهو يتكلم. شعرت بالضيق للخجل الذي تملكها. كان يتعمد ذلك، طبعاً. حسناً، إنها ستريه. رفعت رأسها إليه مذعنةً وهي تشدّ على أسنانها مغمضة العينين، ثم انتظرت.. وانتظرت.

عندما لم يحدث شيء، فتحت عينيها وحملقت فيه بغضب. فقال ساخراً:

ـ إذا كان هذا غاية ما يمكنك عمله، فالأفضل إخفاء زواجنا عن الأنظار. لمعلوماتك الخاصة يا عزيزتي روزي، المرأة المخطوبة حديثاً، والمفروض أنها غارقة في نشوة الحب، لا ترفع وجهها وتنتظر قبلة خطيبها وكأنها مرغمة على تناول ملعقة دواء.

قالت غاضبة:

ـ لكننا لسنا غارقين في الحب.

ـ ولكل الأسباب التي تحدثنا عنها، كم من المهم جداً ألا يعلم أحد بهذا الوضع. إدوارد ليس أحمق، يا روزي! إذا اكتشف أن لديه فرصة، مهما كانت ضئيلة، لمنازعتك حقك في هذا المكان، لن يتردد في انتهازها.

فقالت بحدة:

ـ ماذا عليّ أن أفعل إذن؟ آخذ دروساً في كيفية عناق رجل

www.elromancia.com

وكأنني أحبه بينما لست كذلك؟ كلا، شكراً، لست بحاجة لذلك.

ـ لا، ليس هذا ما أريد! عناق بين عاشقين ملتزمين لا يشبه بشيء تصرفك العشوائي المرتبك!.

حملقت روزي فيه بمزيج من الغضب والارتباك. أرادت أن تخبره بأنها تعرف تماماً ما هو الشعور الذي يرافق عناقاً مع رجل تريده، لكنها كانت تعلم أن هذا غير صحيح. ذلك أن الرجال الذين عرفتهم حتى الآن، لم يحركوا فيها أي عاطفة. قالت له بدلاً من ذلك:

ـ أنا لست ممثلة، يا غارد! لا أستطيع إظهار عواطف محمومة عند الطلب...

قال بنعومة:

ـ ربما حان إذن وقت تعلمك هذا.

كان ما يزال ممسكاً بيدها.. وقريباً منها بحيث أن كل ما عليه، لكي يملأ الفراغ الذي بينهما، هو التقدم خطوة واحدة. أجفلت روزي متوقعة أن يأخذها بين ذراعيه، عالمة بأنه من القوة بحيث لا يمكنها تحرير نفسها منه. لكنه لم يفعل سوى أن رفع يده ببطء وأخذ يزيح شعرها عن وجهها برقة وهو يقول بهدوء:

ـ هكذا يعامل الرجل العاشق المرأة التي يريد الزواج بها، يا روزي. إنها تبدو له من الضعف والهشاشة والرقة بحيث يخاف تقريباً من لمسها. يخاف تقريباً من أن مجرد لمسها سيشعل فيه من العاطفة ما لا يستطيع السيطرة عليه. إنه يريدها من كل قلبه وبشكل طاغ، لكنه في نفس الوقت يريد أن يسير معها ببطء بالغ.. إنه موزّع بين هاتين الرغبتين، لهفته إلى امتلاكها، ورغبته في.. أن يمنحها كل ما يمكنه من بهجة... وهكذا يلمس بشرتها برقة وربما بيد غير ثابتة.

وأثناء ذلك، ينظر في عينيها، يريد أن يرى فيهما أن عواطفه، رغبته، حبه، كل ذلك متبادل بينهما. يريدها أن تعلم وتفهم مبلغ الجهد الذي يبذله للسيطرة على نفسه.

بدت كالمنومة مغناطيسياً حتى إنها لم تطرف بعينيها عندما رفع غارد يدها اليسرى إلى ذقنه. تحررت لحظة من مغناطيسية عينيه حين لامست أناملها خشونة ذقنه الخفيفة.

شعرت بحرارة أنفاسه تلفح وجهها. وانفتحت شفتاها قليلاً لحاجتها إلى مزيد من الهواء. أذهلها ما شعرت به من فارق بين خبرته وخبرتها.

كان عناقه من الخفة، كأنه غير موجود، وما كان ينبغي له مثل هذا التأثير عليها... ثم فجأة ازداد ضغط ذراعيه بقوة كادت تشلّها. هكذا يعانق الرجل إذن؟ أخذت روزي تفكر في ذلك ورأسها يدور...

كانت صدمتها أشبه بألم جسدي سرى في كيانها جاعلاً عينيها تغرورقان بالدمع.

... ابتدأت ترتجف عندما غمرت كيانها المشاعر... تملكها الحرج وهي تحاول أن تفهم السبب في أن عناق غارد له القدرة على خداع حواسها... فاندفعت إلى الخلف مبتعدة عنه بذعر. لم ترَ من قبل عيني غارد بهذا الشكل... ثم بصوت ممزق:

ـ لا.

وما لبثت أن تنفست بارتياح عندما حرَّرها ووقف بعيداً عنها. بيد أنها ما زالت تشعر بالاحمرار يصبغ وجهها رغم جهودها في كبح ذلك. حاولت أن تقول شيئاً. أية ملاحظة عابرة... لكن عقلها رفض أن يفكر.

حين ابتعد متجهاً نحو الباب، وجدت نفسها تتساءل بصمت كم من النساء مررن في حياته ليبعثن فيه حقيقة هذه المشاعر العنيفة التي لمستها لديه. ولما وصل إلى الباب، استدار نحوها محذراً:

ـ لقد فات أوان تغيير الرأي الآن، يا روزي!

* * *

٤ ـ الوجه الآخر للزواج

ـ ماذا ستفعلين ؟

شعرت روزي بالتعاسة وهي تلاحظ الذهول والغضب في صوت رالف.

مضى أكثر من أسبوع قبل أن تستطيع حمل نفسها على إخباره بزواجها. ليس لأنها كانت تتوقع منه ردة الفعل هذه، بل لأنها خافت من أن يتكهن بالحقيقة.

كان بيتر، مثل غارد، قد حذرها من الوضع الخطر الذي ستضع نفسها فيه إذا ما تملكت الناس الشكوك في أن زواجها ما هو إلا حيلة لترث المنزل، قائلاً:

ـ ربما نعلم، أنا وأنت، مبلغ ما تتضمنه دوافعك من إيثار وحب للغير، ولكن الآخرين قد لا يعلمون ذلك.

ـ قال غارد إن إدوارد ربما يرفع دعوى احتيال ضدنا. هل هذا صحيح؟

قال بيتر حينذاك، بحذر:

ـ هذا محتمل، ولكن عليه أن يقدم دليلاً كافياً يثبت زيف الزواج. وأن يتمكن مثلاً من إثبات استحالة إنجاب طفل من هذا الزواج...

www.elromancia.com

ـ لكنك تعلم أن هذا صحيح.

ـ أنا أعلم وأنت تعلمين، وكذلك غارد. لكن غيرنا لا يعلم بذلك، ولا يجب أن يعلم.

تجنبت روزي إخبار رالف عن الزواج، خوفاً من أن لا تستطيع تمثيل دور الزوجة الغارقة في الحب. ولكن، في النهاية، لم يكن حبها لغارد ما سألها رالف عنه، وإنما حب غارد لها.

ـ بالله عليك يا روزي، ألا ترين ماذا يهدف إليه؟ إنه يريد الشيء الذي يعلم أن أمواله لا يمكنها شراؤه.

ـ أتعني أنا؟

فقال متجهماً:

ـ كلا، بل أعني منزل «مرج الملكة». رغبته الدائمة في ذلك المنزل ليست سراً، وقد رفض جدك أن يبيعه إياه.

قاطعته حينذاك، متشاغلة بتسوية ثنيات ثوبها:

ـ أنا وغارد نحب بعضنا بعضاً، يا رالف.

ـ آه، يا روزي... ألا يمكنك أن تري؟ رجل مثل غارد لا يقع في الغرام...

سكت فجأة واحمر وجهه قليلاً.

ـ اسمعي، لا أريد أن أسبب لك ألماً، يا روزي. إنك فتاة جذابة... فتاة بالغة الجاذبية... أما بالنسبة للخبرة... فأنت وغارد كأنكما، تقريباً، من كوكبين مختلفين. لقد رأيت بنفسك، هنا في الملجأ، ما يمكن أن تسببه العلاقات غير المتوازنة من تعاسة. الألم الناشيء عن زواج غير متكافيء. هل ترين حقاً أنكما متماثلان في كل شيء؟ أنك وهو...؟

أخذت تكرر قولها:

ـ إننا مغرمان ببعضنا البعض، و...

فقاطعها قائلاً:

ـ وهو سيعلمك كل ما تجهلينه من أمر العلاقة العاطفية. كلام فارغ! إذا كنت تعتقدين ذلك حقاً، أنت إذن لست الشخص الذي أعرفه. إنه سيستمتع بالعبث معك عدة أسابيع، بكل تأكيد، ومن الممكن عدة أشهر... ولكن بعد ذلك... لا تقدمي على هذا الزواج، يا روزي! لستِ بحاجة للزواج به. أنت...

ـ بل أنا بحاجة إلى ذلك.

نطقت بهذا الاعتراف الهادىء الحزين قبل أن تتمكن من منع نفسها. خرجت هذه الكلمات رقيقة خافتة لدرجة أن رالف لم يتمكن من سماعها.

رفعت بصرها إلى باب المكتب الذي انفتح فجأة واندفعت منه امرأة مصحوبة بولدين صغيرين، طالبة التحدث إلى رالف. كانت «ليز فيليبس» إحدى زبائن الملجأ المنتظمات. إنها غالباً ما تهجر زوجها القاسي العنيف، معلنة بأن لا قوة على الأرض تجعلها تعود إليه، لتعود إليه بعد أسابيع من تركه.

كانت روزي ترى ببراءة، وذلك في بداية عملها في الملجأ، أن هذه المرأة تحب زوجها، ولذلك تعود إليه بعد كل خلاف. وكان رالف يجيبها:

ـ نعم، كما يحب مدمن الكحول شرابه، ومدمن المخدرات جرعاته.

إنها مدمنة عليه.. على عنف علاقتهما. جزء منها يحتاج ويشتاق إلى ما تراه إثارة في علاقتهما. ولكن مقابل كل «ليز فيليبس» هنا، هناك مئة امرأة يرغبن بصدق في إنهاء علاقاتهن والبدء من

www.elromancia.com

جديد، وهن بحاجة إلى مساعدتنا.

سألته ذات مرة بحيرة:

- وكيف تميّز الفرق؟

- بالخبرة. ككل شيء آخر.

ذلك الحين، ظنت أن رالف قاسٍ بغير حق. لكنها الآن أصبحت أكثر حكمة. وها هي للمرة الأولى، تفكر في مشاكلها الخاصة أكثر مما تفكر في الملجأ ونزلائه.

لم يبد السرور على غارد حين أخبرته بأنها ستدعو رالف إلى حفلة زفافهما. لكن روزي أصرّت على الأمر.

كان بيتر هو الذي سيحتل مكان وليّ أمرها في الكنيسة، كما أن غارد أرسل خبراً للنشر في الصحف عن زواجهما. ولم يكن المدعوون إلى الاحتفال يتجاوزون بضعة أشخاص.

بقي على موعد الزواج يومان، وبعد ذلك يصبحان زوجاً وزوجة. كان هذا وضعاً لم تستطع مخيلتها استيعابه. هي وغارد... زوج وزوجة... وهي وغارد مشتركان في حيلة إذا ما اكتشفها أحد...

هل كل العرائس يتملكهن مثل هذا الشعور؟ أم أن برودة يديها وجمود ذهنها هما فقط بسبب ظروف زواجها غير العادية؟ هكذا أخذت روزي تتساءل بتوتّر حين وقفت السيارة أمام الكنيسة وخرج منها بيتر.

هذا الصباح، وهي ترتدي ثوب الزفاف وتقف أمام المرآة، بينما السيدة فرينتون تساعدها وتعتني بها، تملكها من الغمّ والكرب والشعور بالذنب ما أوشكت معه أن تمزق الثوب وتهرب. لكن بيتر كان قد وصل حينذاك حاملاً الأزهار التي أرسلها غارد إليها، وما

لبثت أن تطورت الأحداث على نحو تصعب مقاومته.

وها هي ذي الآن، تدخل الكنيسة الشامخة، مارة بالنافذة الأثرية الملوّنة، التي كانت هدية من أحد أسلافها، بثوب زفافها الساتان العاجي اللون الذي كان لأمها من قبلها. ومع ذلك، كان عليها أن تعصر نفسها، بالرغم مما فقدته من وزن في الأسبوع الأخير... فقد كان خصر أمها بالغ النحافة. وما زال بين ثنياته أثر من عطر تذكرت روزي أن أمها كانت تستعمله. وعندما تعطرت به شعرت وكأنها تحمل جزءاً من أمها.

دفعت هذه الذكريات دموعاً حارة إلى عينيها أخذت تغالبها بعنف.

كان خمارها أبيض، في ما مضى، لكنه بمرور الزمن، أصبح عاجي اللون، وقد ورثته عن جدتها. ارتداؤها لهذه الملابس التي سبق وارتديت بحب كبير، جعلها تشعر بنوع من التعويض عن نقص مشاعرها الحالية.

زواج؟ لم يكن هذا زواجاً وإنما اتفاقية عمل، وهذا كل شيء. إنه عقد...

شعرت بجو الكنيسة بارداً. برودة البلاط تحت قدميها تخللت نعل حذائها الرقيق. كانت الكنيسة خالية بشكل كئيب. لم يكن سوى الصفين الأولين من المقاعد مشغولاً. شخص ما، لا بد أنه غارد، زين المكان بباقات ضخمة من الأزهار البيضاء والعاجية اللون، ما أسبغ دفئاً خفّف من عتمة المكان وصرامته.

عندما وقع نظرها على غارد، اضطربت خطواتها قليلاً. ومع أنها كبحت آهة الضيق فلم يسمعها، إلا أنه التفت إليها. بدا شارد الذهن. كان من الصعب التصور أنها على وشك الزواج به. ارتجفت، وسرّها

أن الخمار أخفى ما ارتسم على ملامحها. قال بيتر لها محذراً:

- إدوارد يراقبك، ابتسمي.

إدوارد! لم تكن روزي لاحظت وجوده في الكنيسة. لكنها رأته الآن مصحوباً بزوجته وولديه... نسختين شاحبتين مقهورتين عن أمهما. الشعر مسرَّح إلى الخلف، ويلبسان زيهما المدرسي. امتعضت روزي قليلاً وحولت عينيها عن أطول الولدين.

إنها تحرمه، بزواجها من غارد، من وراثة «مرج الملكة». ولكن، إذا ورثه إدوارد، فلن يكون هناك «مرج الملكة» كي يرثه هذا الولد!

تعلقت بهذه الفكرة تلتمس فيها العزاء حين وصلت أخيراً إلى جانب غارد.

أهي جلجلة أجراس الكنيسة المبتهجة التي تشعرها بالغثيان، أم لعلها صدمة تلك اللحظة عندما رفع غارد خمارها ونظر في أعماق عينيها، بعد أن أعلنهما الكاهن زوجاً وزوجة؟ أوشكت، لجزء من الثانية، أن تنخدع بتلك المشاعر الرقيقة التي نطقت بها عيناه وهو ينظر في عينيها، ظناً منها أنها حقيقة!

كانت هناك مجموعة من الناس تدور حولها. من أين جاؤوا؟ ميزت بينهم مجموعة من النساء قدمت من الملجأ، أناساً كانوا يعرفون أباها وجدها. كلهم باسمون ضاحكون، يلقون بالتعليقات المازحة عن فجائية هذا الزواج. كلهم ما عدا إدوارد.

توجست روزي خيفة وهي ترى الحقد في عينيه. كانت تعلم دائماً أنه لا يحبها. لكن ذلك لم يكن يقلقها قط، فهي لم تكن تحبه أيضاً، لكنها الآن تدرك أن كراهيته لها مختلفة. إنها الآن تقف بينه وبين ما يتوق إليه ويعتبره حقاً له. وتملكتها قشعريرة.

- ما هذا؟ ماذا حدث؟

أجفلت دهشة لسؤال غارد. لم تكن تتوقع منه أن يلاحظ قشعريرة التوجس الصغيرة التي تملكتها. إذ كان يبدو مستغرقاً في حديث مع بيتر بحيث لا يدع له مجالاً للانتباه إليها.

- لا شيء!.

أجابته بذلك، مدركة أن إدوارد ما زال يراقبها، بل يراقبهما معاً. قال لها أحدهم:

- ثوبك جميل جداً!.

أجابت شاردة الذهن:

- شكراً، إنه ثوب أمي!.

- هذا ما توقعته!.

كان هذا غارد! إلتفتت إليه بدهشة فعاد يقول:

- كان أبوك يضع صورتها على مكتبه وهي ترتديه. إنه يلائمك، ولونه ينسجم مع لون بشرتك. إن له نفس اللون الدافىء...

قال ذلك وهو يلامس عنقها بأصابعه. نبّهته بصوت خافت مختنق:

- إدوارد يراقبنا!

- نعم أعرف هذا.

سألته باضطراب:

- أتظنه يشك في شيء؟

- إذا كان الأمر كذلك، فهذه ستوقفه عند حده.

- هذه...؟

ورفعت بصرها إليه مستفهمة، ثم جمدت في مكانها وهي تراه يأخذها بين ذراعيه ويعانقها بطريقة تظهر للمشاهدين رجلاً بالغ

www.elromancia.com

الشغف بعروسه إلى حد لم تمنعه نظرات المتحفظين المستنكرة من إظهار شعوره.

وعلى غير توقع منها، ومن خلف جفنيها المغمضين، شعرت بالدمع يحرق عينيها.

ليس هذا الوقت مناسباً للانفعالات العاطفية! ليس وقتاً لمقارنة مشاعر أمها، حين ارتدت هذا الثوب، بمشاعرها هي الآن..

عندما ترك غارد روزي، تنهدت زوجة إدوارد بحسد، قائلة:

ـ آه! يا لشاعرية هذا المشهد!... ياليت أبوك...

سمعت روزي غارد يقول بهدوء:

ـ كان جون يعلم بشعوري نحو روزي.

أقرت روزي في نفسها بصحة قوله، ولكن ليس بهذا المعنى تماماً. إنها تتذكر ما قاله أبوها مرة بشيء من الحسد، عن أن بإمكان غارد أن يحصل على المرأة التي يريد.

كانت روزي في السابعة عشرة حينذاك، فتصرفت تبعاً لذلك إذ قالت لأبيها متحدية:

ـ إنه لا يستطيع الحصول عليّ!.

ضحك أبوها، قائلاً:

ـ أنت لم تصبحي امرأة بعد، يا حلوتي. وأنا أشك كثيراً في أن غارد سيرغب فيك، على كل حال، لأنه يعرف جيداً أيّ صغيرة سليطة اللسان أنت أحياناً...

سمعت روزي إدوارد يسألها:

ـ أين ستذهبان في شهر العسل؟ أم غير مسموح لنا بالسؤال؟

أجاب غارد عنها:

ـ لسنا ذاهبين إلى أي مكان، ليس حالياً على الأقل. لدي اجتماع

في بروكسل بعد يومين لم أستطع التملص منه. سنذهب، أنا وروزي، إلى هناك غداً صباحاً.

يذهبان إلى هناك؟! نظرت روزي إليه، لكنه كان ينظر في اتجاه آخر يجيب زوجة الكاهن عن بعض الأسئلة. وهكذا كان عليها أن تنتظر إلى أن يصبحا وحدهما في سيارة الزفاف، لتسأله بضيق:

ـ لماذا أخبرت إدوارد أننا سنذهب معاً إلى بروكسل؟ سيشك في الأمر عندما يكتشف أنني لم أذهب معك.

همست بهذا السؤال رغم أن الزجاج بينهما وبين السائق كان مغلقاً، وهي تفكر بتعاسة في عواقب الخداع.. إذ يبقى الشخص حريصاً... حذراً... شاعراً بالذنب...

ـ لن يكون هناك ما يدعوه إلى الشك، لأنني عنيت ما قلته.

سألته ساخطة:

ـ أتعني أنك تتوقع مني مرافقتك إلى بروكسل حتى دون استشارتي؟ لكنني لن أستطيع ذلك... المفروض أنني سأكون في عملي في الملجأ...

ـ لا تكوني سخيفة، يا روزي! رغم أن رالف يكرّس نفسه لعمل الخير، إلا أنه لن يتوقع عودتك إلى العمل بهذه السرعة.

قالت بتحدّ:

ـ لكنني أنا أريد ذلك.

فقال محذراً:

ـ إذا فعلت ذلك، ستعرضيننا للخطر. الزواج يتطلب أكثر من مجرد طقوس كنسية.

أشاحت بوجهها عنه بغضب. إنها تعرف جيداً ما هي متطلبات إتمام الزواج. لكن زواجهما لن يتضمن ذلك الجزء المعيَّن، وغارد

www.elromancia.com

يعلم هذا. تابع غارد بهدوء:

ـ إنه يتطلب درجة معيّنة من العلاقة الحميمة يقوم بها الأزواج. لكن علينا، أنا وأنت، أن نعثر على طريقة أخرى. إننا بحاجة إلى قضاء بعض الوقت بمفردنا لنثبّت نفسنا في دورنا الجديد، يا روزي.

وعندما لم تجب، قال متصلباً:

ـ أنت التي أردت هذا الزواج، يا روزي!...

قاطعته بغضب:

ـ لإنقاذ المنزل، وليس لأن...

في أعماقها، كانت تشعر أن غارد على حق، لكن آخر ما كانت تريده هو أن تمضي معه وقتاً بمفردها. إن هذا، في نظرها، يعقد المشكلة بدلاً من أن يحلها. قالت بلهجة تنذر بالخطر:

ـ لا أريد أن أذهب معك، يا غارد! لا أريد أن أعود لأرى الناس ينظرون إلينا... متفحصين... متخيلين... معتقدين...

قال رافعاً حاجبيه متحدياً:

ـ ماذا؟

تمتمت متجنبة النظر إليه مباشرة:

ـ أنت تعلم!.

ـ يظنون أننا كنا معاً في السرير؟ وأن رحلة العمل ما هي إلا قصة خيالية؟

رأت من زاوية عينها كيف كان يطيل النظر إلى صدرها، فاحمر وجهها على الفور. قال ساخراً:

ـ يا لهذا الخجل! سوف تختبئين إذن لو أخبرتك كيف أريد أن تتصرف معي زوجتي التي أحب!

فقاطعته:

ـ أنا أعرف كم تحب أن تهزأ مني، يا غارد! نعم، أنا أخجل عندما تتحدث عن مثل... مثل هذه الأشياء الخاصة جداً. صحيح، أن خبرتي لا يمكن مقارنتها بخبرتك، ولكنني أفضّل أن أكون دائماً كما أنا.

وعندما لم يحاول مقاطعتها أو السخرية منها، أضافت بشيء من الثقة.

ـ أفضّل ألا أفعل.

ـ سؤال صغير فقط، يا روزي. لماذا لا تريدين أن تفعلي هذا؟

أجابت بصوت متهدّج:

ـ أنت تعلم السبب.

قال ساخراً:

ـ لأنك تدخرين نفسك لرجل أحلامك؟ وماذا يحدث إذا لم تعثري عليه، يا روزي؟ ألم يسبق أن سألت نفسك هذا السؤال؟

ألقى غارد عليها هذا السؤال بعنف بالغ غير متوقع، ما جعلها ترتجف.

* * *

www.elromancia.com

٥ ـ امرأة لا طفلة!

ـ لكن هذا ليس فندقاً!.

قالت روزي محتجة عندما صعد غارد بسيارتهما المستأجرة في طريق خاص ثم أوقفها أمام مدخل قصر مهيب مبني بالحجر.

منذ أعلن غارد أنها ستذهب معه إلى بروكسل، أخذت روزي تحتج وتجادل، ولكن من دون جدوى. ذات مرة انفجرت فيه غاضبة:

ـ وما المفروض أن أقوم به أنا أثناء وجودك في الاجتماعات؟

ـ لم يخطر ببالي قط أنك أنانية إلى هذا الحدّ!

حملقت فيه آنذاك بارتياب، وساورتها شكوك في دوافعه الخفية، وخيّل إليها أنها تعلم جيداً ما هي. إنها ليست حمقاء... وكان ردها:

ـ لست ذاهبة معك، يا غارد! ولا أريد الذهاب!.

ولكن، بطريقة أو بأخرى، لم تنفع كل احتجاجاتها. وها هي ذي الآن هنا تنظر إليه بقنوط، ساخطة لقدرته على البقاء هادئاً في حين كانت مشاعرها تضطرب اضطراباً شديداً.

لم تكن معتادة على أن لها زوج، وكرهت افتراض غارد بأنه هو الذي يقرر ما يجب أو لا يجب عمله.

أجاب الآن بهدوء:

ـ لا، إنه ليس فندقاً. إنه بيت خاص. و«المدام» صاحبة القصر هي سيدة فرنسية. وبدلاً من أن تبيع البيت بعد وفاة زوجها، قررت أن تزيد دخلها بتأجير غرفه. ومثل أكثر النساء الفرنسيات، هي ليست طاهية ممتازة فحسب، وإنما مضيفة ممتازة وماهرة جداً في توفير أسباب الراحة.

قطبت روزي جبينها. شيء ما في صوت غارد وهو يتكلم عن صاحبة القصر ضايقها. ومن دون حاجة إلى مزيد من الوصف، تصورتها روزي على الفور إحدى تينك الفرنسيات الأنيقات دائمات الشباب اللواتي تشعر، هي شخصياً، بالخوف منهن.

ـ لكن، قلت إن لديك عملاً في بروكسل، وهذا المكان يبعد عنها أميالاً!.

ـ ليس أكثر من ساعتين بقليل في السيارة. هذا كل شيء! وإقامتي هنا تعطيني عذراً لئلا أتورط في أحداث بروكسل السياسية. فكرت في أنك ستحبين هذا المكان. كنت تقولين دائماً إنك تفضلين الريف على المدينة.

ابتعدت روزي بنظراتها عنه. كان صحيحاً أنها تفضل الريف، وربما كانت ستستمتع بهذه الرحلة في أحوال عادية. لكنها، في العادة، ما كانت لتأتي إلى هنا مع غارد، زوجة له.

في هذه الأثناء، كان غارد قد نزل من السيارة واستدار ليفتح لها الباب. ورغم تفضيلها الكنزة والبنطلون عادة، إلا أنها كانت ترتدي تنورة صوفية طويلة وصداراً مناسباً تحته قميص حريري بنّي اللون، وفوق كل ذلك سترة مناسبة أحضرتها معها تحسُّباً للبرد. كانت ارتدت هذه الملابس لعلمها أنها تُظهرها نحيفة، ما جعلها مسرورة

www.elromancia.com

عندما انفتح باب القصر وبرزت امرأة غارد الفرنسية.

كانت ترتدي السواد.. تنورة سوداء من الكريب اشتبهت روزي في أنها من إحدى دور الأزياء، فوقها قميص بسيط من الساتان ووشاح من الكشمير حول كتفيها. عقد اللآلىء الذي كان يتألق حول عنقها، والمؤلف من ثلاثة حبال، لا بد أنه حقيقي، وكذلك الخواتم الماسية في أصابعها والقرطان في أذنيها. ولكن ليست أناقتها هي التي أذهلت روزي، التي أخذت كارهة تصعد السلم خلف غارد، وإنما عمرها.

لم تكن المرأة، كما توقعت روزي، بين الخمسين والستين من عمرها، وإنما أقرب إلى الأربعين. إنها أقرب إلى غارد في العمر منها هي. أما لماذا شعرت بمثل هذا العداء نحو «المدام»، فلم يكن لديها جواب. وأما أنه شعور متبادل، فالأمر واضح!

التفتت «المدام» إلى غارد، متجاهلة روزي تماماً، لتقول له ببرودة:

ـ آه، لم أدرك أنك ستحضر معك... صديقة!

قال غارد بحزم وهو يقدّم روزي:

ـ روزي هي زوجتي.

أكانت صديقة أم زوجة، لم يشكل ذلك أيّ فرق بالنسبة إلى «المدام». كان واضحاً أن وجود روزي لم يسرّها.

ـ وضعتك في جناحك المعتاد.

أخبرت غارد بذلك وهي تقف بينهما بشكل جعلها تواجه غارد، مديرة ظهرها لروزي، ثم أخذت تتحدث إليه بلغتها الفرنسية.

لكن روزي تتحدث الفرنسية بطلاقة. كان لديها موهبة تعلم اللغات، نمّتها سنوات إقامتها في ألمانيا مع والدها. وفرنسيتها، في

الواقع، أكثر طلاقة من فرنسية غارد بكثير. كانت «المدام» تقول:

ـ وعلى كل حال، إذا كنت تفضل غرفة أخرى...

غرفة أخرى!.. وخفق قلب روزي بضيق. كانت تفترض أن إقامتهما ستكون في فندق كبير، وفي غرفتين منفصلتين. كما افترضت أن رغبة غارد في مشاركتها غرفة واحدة ستكون ضعيفة مثل رغبتها هي.

قال غارد للمدام:

ـ لا! جناحي المعتاد مناسب تماماً!

الردهة الواسعة، المعرضة لتيارات الهواء، جعلت روزي مسرورة بتنورتها الطويلة.

كان منزلها «مرج الملكة» أكثر دفئاً بسقفه المنخفض والخشب السميك الذي يغطي الجدران. لكن هذا المكان، بغرفه العالية السقوف، وجدرانه الحجرية العارية، لا بدّ أنّه سيكون كابوساً... بالنسبة إلى الدفء. هكذا أخذت روزي تحدث نفسها، فيما كانت المرأة تتقدمهما صاعدة السلم الحجري.

كانت السجادة التي تغطيه، رغم أنها بالية تقريباً، مطرزة بما افترضت روزي أنه شعار أسرة الزوج الراحل. وقفت تتفحصها عن قرب، متسائلة عما إذا كانت ترجمتها صحيحة لما قرأته في ناحية منها. ومفاده أن إحدى سيدات القصر كانت في وقت ما عشيقة للملك وولدت منه طفلاً.

كانت «المدام» تصعد الدرج مع غارد، جنباً إلى جنب، معربةً بالفرنسية عن أسفها لأن وجود زوجته معه يعني أنهما لن يتناولا العشاء بمفردهما. أجابها هو بالانكليزية بكياسة بالغة:

ـ مع الأسف! لكنني واثق من أن روزي ستستمتع بتذوق طعامك

www.elromancia.com

اللذيذ.

قوله هذا جعل روزي تحملق فيه. لم يكن ثمة حاجة لأن يتدرب هنا على تمثيل دور الزوج المحب.

كادت تقول أن بإمكانهما، هو والمدام، أن يستمتعا بالجلوس وحدهما قدر ما يشاءان من المرات، دون أي مانع من ناحيتها. لكنها، بدلاً من ذلك، قالت للمدام بابتسامة باردة و لغة فرنسية طليقة بأنها، في الواقع، تتشوق إلى طعامها اللذيذ.

لم تقل المدام شيئاً، بل نظرت إليها بعينين ضيقتين، وزمت فمها المصبوغ باللون القرمزي. ولم تعد تتحدث إلى غارد بالفرنسية، وهي تقودهما خلال الممر ثم تقف أمام باب من الخشب الثقيل قائلة لروزي بتكلف ودون قناعة:

ـ أنا واثقة من أن كل شيء سيكون حسب رغبتكما!.

وهذه المرة، جاء دور روزي لتكون شاردة الذهن غير متجاوبة.

عندما تركتهما المرأة، خطر في ذهنها أن العلاقة بينها وبين غارد هي أعمق بكثير من تلك التي بين المضيفة والنزيل. لكن من الغريب أنها لم تفصح عن شكوكها هذه، علماً أن تسرّعها كان على الدوام مدار مزاح في أسرتها. كانت تعلم، آسفة، أنها تميل إلى الكلام قبل التفكير، ولكن بالنسبة إلى حياة غارد الشخصية، وخبرته مع النساء، لم يكن ما منعها من ذلك مجرد التحفظ.

مجرد التفكير في حياة غارد العاطفية يجعل الحرارة تسري في جسدها، وكذلك الحذر. كانت ترى أن هناك شيئاً بالغ الخطورة، ولكن الإدلاء بتعليقات غير حذرة من شأنه أن يمنح غارد الفرصة لتعييرها ببراءتها وجهلها.

لم تكن تشعر بمثل هذا الضيق مع الرجال الآخرين. وإنما

العكس تماماً. عندما تجاوزت غارد داخلة إلى غرفة الجلوس في الجناح، شمت على الفور رائحة عطر المدام في الجوّ. أخذت تتفحص ما يحيط بها بصمت. الأثاث المذهب، المرآة الضخمة المذهبة فوق المدفأة، الأغطية المطرزة باليد، والستائر الحريرية القديمة الطراز. كما أضفت زهرياتٌ تحتوي على زنابق بيضاء أناقةً على الغرفة.

أدركت روزي ذلك وهي تنظر إلى البساط «الأوبيسون» الذي بهت لونه، مقطبة الجبين، شاعرة بالرهبة من هذا الجو القديم المحيط بها.

ـ أنا عادةً أستعمل غرفة النوم هذه.

سمعت غارد يقول هذا من خلفها وهو يفتح أحد البابين اللذين يؤديان إلى خارج الغرفة.

ـ إن لها حمامها الخاص خلافاً للغرفة الأخرى. ولكن إذا كنت تفضلين...

ما تفضله هو أن تكون الآن في بيتها وحدها، كما يعلم جيداً.

ـ هذا لا يهمني. ولكن أليس الأفضل لك أن تنام في الغرفة ذات الحمام؟ وبعد، أنا واثقة من أن المدام تتوقع منك أن تكون مستعداً تماماً حين تنضم إليها لعشائكما المنفرد!.

ـ أتغارين؟!

هذا اللوم الرقيق غير المتوقع، جعلها تصمت ذاهلة.

تغار... كيف يمكن أن تكون كذلك؟ إن غارد لا يعني لها شيئاً. المشاعر الوحيدة التي بينهما هي سخريته منها وبغضها العقيم له. تغار... هذا مستحيل!... إن غارد يعلم ذلك، فلماذا إذن يرميها بالغيرة؟

www.elromancia.com

هزت رأسها غير قادرة على الإنكار. ولماذا تفعل وليس هناك ما تنكره؟ بدلاً من ذلك، أشاحت بوجهها عنه وهي تقول بغضب:

ـ لم أكن أريد القدوم إلى هنا، يا غارد.

ـ ربما هذا صحيح، ولكنك هنا الآن. أنت هنا، وأثناء وجودنا...

عندما أخذت تبتعد عنه، توجه نحوها ساداً طريقها إلى باب غرفة النوم.

ـ انظري إليّ يا روزي. إنك لم تعودي طفلة لكي يُسمح لك بالهرب من النقاش لإنقاذ ماء وجهك حين تعرفين أنك خاسرة.

فنظرت إليه بمرارة:

ـ النقاش؟ وهل هناك من هو مسموح له بأن يناقشك، يا غارد؟ إنك كُلّي القدرة.. كلك رأي.. وكلك معرفة. استمر إذن.. ماذا عن «أثناء وجودنا هنا»؟ يمكنني الجلوس كطفلة مطيعة بينما أنت والمدام...

قال متجهماً:

ـ لا شيء بيني وبين الكونتيسة!

ـ ربما كلامك صحيح. لكنها تحب أن يكون ذلك.

استمر يقول متجاهلاً تعليقها:

ـ أكرر أن لا شيء بيننا. ولو كان هذا موجوداً...

فساعدته على إتمام كلامه، ساخرة:

ـ لكان ذلك ليس من شأني.

ـ ربما هذا صحيح. ولكنه ليس ما كنت أريد قوله. ما كنت أريد قوله يا روزي هو أن عليك أن تحاولي وضع عداوتك لي جانباً، وتستخدمي المنطق والتعقل بدلاً من إطلاق مشاعرك. إن سبب

إصراري على إحضارك معي في هذه الرحلة هو أن نمنح نفسنا وقتاً نعتاد فيه على وضعنا... الجديد. هل من العقل إذن أن أفعل ذلك ثم أحضرك إلى منزل عشيقتي؟ ليس عليك أن تقلقي، يا عزيزتي، عندما ألح عليك بالمجيء معي في رحلة عمل، وإنما عندما أبدأ باصطناع المعاذير لئلا آخذك معي...

لأمر ما، كان يبتسم، وهذا ما أثار غضب روزي فصعد الدم إلى وجهها. قال ساخراً وهو يلمس وجنتها بأنامل باردة:

ـ كثير من المشاعر المتوقدة وقليل من المنافذ لتصريفها!

أمرته قائلة بحرارة:

ـ كفى استعلاءً يا غارد! أنا لست طفلة!

اختفت ابتسامته ليحل مكانها نظرة تقييم هادئة:

ـ لست طفلة؟ ليت هذا صحيح!

ـ لا، شكراً، لا أريد مزيداً من الشراب!

رفضت روزي ذلك وهي تهز رأسها محاولة كبت تثاؤبها.

لم يبالغ غارد في مدح موهبة «المدام» في الطهي. لكن روزي لم تستمتع حقاً بالطعام. فالطريقة التي تعمدت فيها المدام استبعادها من الحديث، مقتصرة على غارد، جعلتها تشعر إزاءها بالتسلية أولاً، ثم بالضيق بعد ذلك. وتوخياً للإنصاف، كان عليها أن تعترف بأن غارد بذل وسعه لكي يوقف سلوك المدام السيء، محاولاً إدخال روزي في الحديث. لكن روزي تعبت من هذه اللعبة وتمنت لو تعتذر ثم تهرب إلى سريرها. قالت بهدوء:

ـ في الواقع، إذا لم يكن هناك مانع، أريد أن أذهب إلى النوم.

ثم وقفت قبل أن يتمكن غارد من قول شيء. حيّت مضيفتها بتكلف، مادحة الطعام. قال غارد بصوت هادىء غير متوقع:

www.elromancia.com

ـ أظنني سآتي معك.

قالت باحتجاج:

ـ كلا، بل إبق هنا!

لكن غارد كان سبق وأمسك بمرفقها، مضيفاً شكره إلى شكرها، وهو يسير معها نحو الباب. عندما أصبحا في الردهة، قالت له بحدة:

ـ ما كان يتوجب عليك ذلك. كان يمكنك البقاء.

قال ساخراً:

ـ وأترك عروسي وحدها؟

حملقت فيه مزمومة الشفتين وقالت غاضبة:

ـ لا حاجة للسخرية بهذا الشكل! لست حمقاء على الإطلاق، يا غارد! أنا أعلم جيداً أنك...

عندما سكتت، قال بسرعة:

ـ أنني ماذا؟

لكن روزي رفضت الجواب مكتفية بهزة من رأسها. ما الفائدة من قول ما يعرفانه، هما الاثنان؟ أنها آخر امرأة كان غارد سيفكر في الزواج بها، كما أنه آخر رجل كانت تريد الزواج به.

عادت تكرّر اعتراضها السابق، وبانفعال هذه المرة:

ـ لا أدري لماذا أحضرتني إلى هنا! ما المفروض أن أفعله بنفسي حين تكون في بروكسل؟ أطلب من المدام أن تعلمني الطهي؟

ـ إنك لن تبقي هنا، بل سترافقينني.

ـ ماذا؟!

ـ أظنك ستجدين السيد «ديبوا» على شيء من الأهمية. وحيث أنه لا يتكلم الانكليزية، وفرنسيتي ضعيفة نوعاً ما، سأكون شاكراً مساعدتك.

ماذا يعني غارد بقوله إنها ستجدَ السيد «ديبوا» مهماً؟ إن عمل غارد يتضمن تفاصيل معقدة جداً وبرامج على الكمبيوتر، وهو موضوع لا تعرف عنه روزي إلا القليل، كما يعلم غارد جيداً. تابع غارد يقول وكأنه يقرأ أفكارها:

ـ السيد ديبوا عالم خبير بالبيئة. وهو المتحدث باسم مجموعة بالغة النفوذ في السوق الأوروبية المشتركة تطالب بمزيد من السيطرة على فساد البيئة في الأرياف. وحيث أنني أعلم اهتمامك بهذا الأمر، ستجدان الكثير لتتحدثا عنه.

ليس من عادة غارد أن يعطيها رأياً لا يتضمن نوعاً من السخرية، ما جعلها، لأول مرة، لا تعرف ماذا تقول.

ـ وطبعاً، وجودك معي سيوفر عليّ أجر مترجم.

نظرت إليه ساخطة. للمرة الأولى تخدع به فتظنه يعتبرها نداً له... امرأة راشدة. تملكها حنق كاد يدفعها إلى رفض الذهاب معه. لكن البقاء في القصر وحدها لم يكن شيئاً سارّاً.

قال لها وهو يفتح باب جناحها:

ـ لديّ بعض الملاحظات أريد قراءتها. إذا كنت تريدين استعمال الحمام أولاً...

أدركت أن عليها أن تشكر لباقته هذه، لكنها بدلاً من ذلك، شعرت بالانزعاج والارتباك كطفل أرسل إلى النوم لئلا يزعج وجوده الكبار. هل ادعاء غارد بأنه سيقوم ببعض الأعمال، ليس إلا عذراً للعودة إلى الطابق السفليّ لموافاة المدام؟

لو كان غارد يريد البقاء مع المرأة الفرنسية، لما كان بحاجة إلى الكذب! هكذا فكرت روزي بغضب، إنه حر تماماً من هذه الناحية، أو هما الاثنان كذلك.

www.elromancia.com

لماذا إذن شعرت بالضيق حين رأت فم المدام القرمزي يهمس شيئاً في أذن غارد؟

سبب ذلك، كما أخذت روزي تفكر باستياء، ليس سلوك المدام المريب، وإنما هو استياء ها من طعامها الدسم في معدتها.

عندما وافقت بيتر على القيام بمحاولة إنقاذ المنزل، لم تدرك بالضبط ما عليها أن تواجهه. فكرت في هذا باكتئاب وهي تخلع ملابسها وتنزل في حوض الحمام الضخم. كان ضغط أحداث الأسبوعين الأخيرين أكثر مما توقعت.. ومما تريد أن تعترف به.

مضت لحظة، أثناء تناولها فطور يوم الزفاف، نظرت فيها حولها إلى الوجوه المألوفة. فشعرت فجأة، بلهفة قوية إلى أبيها وجدها ليخففا عنها. وإذ ملأت الدموع عينيها وخنقتها، أكبّت فوق صحنها، آملة ألا يكون أحدٌ قد لاحظ ذلك. كان غارد مستغرقاً في حديث مع زوجة إدوارد، أو هكذا ظنت، ما جعلها تشعر بمزيد من الخجل عندما دسّ في يدها منديلاً كبيراً نظيفاً، قائلاً بهدوء:

ـ أنا أيضاً أفتقدهما، يا روزي! إنه، على الأقل، شعور مشترك.

اغرورقت عيناها الآن بالدموع، على غير توقع منها. أخذت تغالبها غاضبة. ماذا حدث لها هذه الأيام؟ لم تكن قط من النوع الذي يبكي بسهولة.

قد تكون المدام سخية بالنسبة للطعام، لكنها بخيلة بالنسبة للماء الساخن. أخذت روزي تفكر في ذلك وهي تغتسل بسرعة وتقفز إلى خارج الحوض، لتلف نفسها بمنشفة كبيرة بيضاء ثم تبدأ بتنشيف جسمها بسرعة لتبدد بذلك ذكرياتها غير المرغوب فيها.

عندما ارتدت قميصها القطني بالصورة الكاريكاتورية المطبوعة عليه من الأمام، نظرت في المرآة وعبست.

اعترفت بأن أحداً لن يصدق أنها عروس سعيدة إذا ما رأى صورتها على هذا النحو.

عندما يتزوج غارد، أو إذا تزوج، لا يمكن أن يكون ذلك بفتاة أو امرأة ترتدي ليلة عرسها قميصاً قطنياً وملابس داخلية عادية. التقطت ملابسها التي كانت خلعتها، ثم توجهت إلى غرفتها منادية عندما دخلتها:

ـ انتهيت من الحمام الآن، يا غارد!

سكوت! أتراه سمعها؟ قطبت جبينها وهي تعض باطن شفتها، ناقلة نظراتها بين باب غرفتها المغلق وبين السرير... آخر ما كانت تريده هو أن يوقظها طرق غارد على بابها ليعرف أين هي.

تأوهت بصوت خافت ثم سارت إلى الباب تفتحه. كان غارد جالساً إلى المكتب أمام النافذة، ورأسه فوق أوراق منشورة أمامه. أخذت تراقبه لبضع ثوانٍ. كان شيئاً نادراً، بالنسبة إليها، أن تتمكن من مراقبته دون أن يلحظها. يا له من رجل بالغ الوسامة! اعترفت لنفسها بذلك وقد خفق قلبها. رجل تتمنى معظم النساء الزواج منه. لكنها ليست واحدة منهن... عندما تتزوج...

ـ ماذا حدث، يا روزي؟

ألقى بهذا السؤال الهادىء من دون أن يرفع رأسه أو ينظر إليها، موضحاً بذلك أنه لم يكن غافلاً عن وجودها. وأضاف متجهماً:

ـ إذا كنتِ ستخبرينني بأنك لا تستطيعين النوم من دون دميتك، إذن فأنا آسف...

أظلمت عيناها غضباً. إنها لم تنم مع دميتها منذ سنوات. حسناً، فقط أثناء الأسابيع الأخيرة، عندما حطمها فقدها لأبيها وجدها.

قالت له بكبرياء:

ـ جئت لأخبرك بأنني خرجت من الحمام.

ـ أتريدين فنجان قهوة قبل النوم؟

فاجأها سؤاله. اتّسعت عيناها قليلاً واحمر وجهها عندما وضع من يده الأوراق التي كان يدرسها ثم التفت إليها. شعرت بأنها تحب أن تتناول فنجان قهوة، لكنها كانت خجلى من كونها في قميص النوم.

قالت بضيق:

ـ الأفضل... الأفضل أن أذهب لألقي عليَّ رداءً آخر... أنا...

أجفلت عندما وقف، رافعاً حاجبيه الأسودين بسخرية وهو يتقدم نحوها.

ـ هذه حشمة بالغة يا روزي! لكنها غير ضرورية. أظن لدي ما يكفي من السيطرة على مشاعري فلا أستسلم لإغراء منظرك بقميص النوم. ثم إن قميصك هذا ليس شديد الإغراء، أليس كذلك؟ إنه ليس قميص عروس، بالضبط كما...

ـ أظنك عندما تذهب إلى سريرك ستلبس بيجاما حريرية.

دافعت روزي عن نفسها بهذا القول متذكرة رواية كان البطل فيها يرتدي تلك الملابس. وتابعت تقول:

ـ ولكن لمعلوماتك الخاصة...

سكتت فجأة عندما أخذ غارد يضحك. لم تكن رأته يضحك من قبل إلا نادراً. ولأمر ما، سبّب ضحكه هذا، لها، طعنة مؤلمة في صدرها.

سألته بارتياب:

ـ ما هذا، ولماذا تضحك؟

قال يهز رأسه والمرح بادٍ في عينيه:

ـ لا يا روزي! أنا لا أرتدي بيجاما حريرية. أنا، في الواقع لا أرتدي شيئاً على الإطلاق.

قال جملته الأخيرة، وهو يحدق فيها بإمعان.

لم تستطع روزي منع وجهها من الاحمرار خجلاً وارتباكاً. ليس فقط لما قاله، حتى ولا لضحكه هذا، وإنما للصورة المفزعة التي تمثلته فيها عارياً.

غصَّت بريقها، وقد منعتها صدمة مشاعرها من ملاحظة كيف تحوّل الهزل في عيني غارد إلى تفحص دقيق. قطّب جبينه لما بدا على وجهها من شحوب وألم.

سمعته يقول لها فجأة:

ـ اذهبي إلى سريرك، يا روزي! لقد عانيت كثيراً من التوتر والإجهاد، مؤخراً. تصبحين على خير...

شعرت روزي بأن كل هذا كثير عليها، فقالت بصوت خنقته الدموع:

ـ أنا لست طفلة، يا غارد.. أنا امرأة.. راشدة، وقد حان الوقت لأن تدرك هذه الحقيقة وتعاملني على أساسها.

غالبت بغضب دموعها التي كانت تحجب عنها الرؤية، وإذا بها تسمع صوت غارد يقول محذراً:

ـ لا تغريني، يا روزي! لا تغريني!.

* * *

www.elromancia.com

٦ ـ لم تستطع الهرب

ـ إذن، فقد تزوج غارد أخيراً! لا يبدو أنني أستطيع لومه!

قال السيد «ديبوا» هذا لروزي وهو يصافحها بعد قيام غارد بواجب التعارف بينهما. ثم سأل غارد بإنكليزيته الحذرة:

ـ متى تزوجت، يا صديقي؟

ـ منذ فترة قصيرة.

قال السيد «ديبوا» لروزي معتذراً:

ـ لا بد أنك غاضبة مني جداً، يا سيدتي. ولكن ليس بمقدار غضب غارد، كما أظن. لكنه الوحيد الذي أثق به للقيام بمثل هذا العمل الهام لنا. من المهم جداً، عندما نعرض قضيتنا على السلطات، أن يكون لدينا كل المعلومات... الواحد منا، هذه الأيام، لا يكتفي بالمعلومات والبلاغة، بل عليه أن يقدم وقائع، وأرقاماً، ورسوماً بيانية. عليه أن يتعلم الكمبيوتر، أو يتحمل العواقب. هل أخبرك غارد شيئاً عن أعمالنا؟

سأل روزي هذا وهو يدعوهما إلى مكتبه الفسيح المشرف على مركز الأعمال في المدينة.

ـ بعض الأشياء.

أجابته بذلك، معترفة لنفسها على كره منها، بأنها مستمتعة،

نوعاً ما. شعرت بالسرور لاستعمال عقلها وقدراتها اللغوية، وأكثر من ذلك شعورها بأنها ماهرة في شيء لا يستطيع غارد أن يماثلها فيه تماماً.

وكما سبق أن قال غارد، كانت إنكليزية السيد «ديبوا» محدودة جداً. كثير من الاصطلاحات التقنية التي كان يستعملها وهو يشرح لها بحماسة احتياجات مؤسسته، كانت غير مألوفة لديها، رغم أنها تمكنت بسرعة من تفسير معانيها.

أثناء متابعة غارد لحديثهما، استطاعت أن ترى من تقطيبه لجبينه، بأنه يجد صعوبة في ذلك. ودون أن تعلم السبب، وجدت نفسها تسكت السيد «ديبوا» بلطف، ثم تلتفت إلى غارد بسرعة لتشرح له ما كانا يقولان، غير منتبهة أثناء ذلك لجو السلطة والثقة بالنفس الذي بدا في صوتها أو للنضج الذي أسبغه ذلك عليها.

عندما نظر السيد «ديبوا» في ساعته أخيراً، هتف مدهوشاً للوقت الطويل الذي أمضوه. دهشت هي أيضاً لسرعة مرور الوقت، ولمبلغ استمتاعها بما كانت تفعل، رغم أنها كانت تزعم دائماً أمام أبيها وغارد أنها لا تحب الكمبيوتر وملحقاته، ويسعدها جداً أن تدع الأمور كما هي.

عندما نهضا للخروج، التفت السيد «ديبوا» إلى غارد، قائلاً:

ـ أنا وزوجتي سنقيم حفلة عائلية صغيرة هذا المساء، احتفالاً بتخرج ابنتنا الكبرى من الجامعة. ويسرني جداً أن تكونا معنا إلا إذا كان لديكما خطط أخرى...

أجاب غارد بسرعة:

ـ كلا على الإطلاق! متى تريدنا أن نكون هناك؟

حالما أصبحا بمفردهما، التفتت روزي إليه محتجة.

ـ لا يمكنني الذهاب إلى حفلة، يا غارد. لم أحضر معي ملابس لائقة بالمناسبة

قال بجفاء.

ـ ليست بروكسل قائمة على كوكب آخر! إن فيها متاجر جيدة جداً، على ما أعتقد. كما عليّ أن أحذرك، يا روزي، من أن السيد «ديبوا» رجل تقليدي. وأظن أن تقديره البالغ لك سيُصدم بشكل ما إذا أنت لبست ثوباً في حفلة ابنته سبق واشتريته من الحوانيت الخيرية، وربما سيعتبر ذلك إهانة.

التفتت إليه روزي غاضبة وقالت بحدة:

ـ لست بحاجة إلى أية محاضرة منك، يا غارد، بالنسبة لما ألبس أو لا ألبس.

كان لديها في بيتها ثوبان أسودان قصيران اشترتهما خصيصاً لتلبسهما عندما كانت تخرج مع أبيها أو جدها في المناسبات الاجتماعية المختلفة. ربما كانت تفضل البنطلون المريح، أو الأثواب المخملية والحريرية التي تلتقطها من التنزيلات والأسواق الخيرية. لكنها ما كانت، بأي شكل لتُحرج أياً منهما بارتدائها ثوباً تعلم أنه يشعرهما بعدم الارتياح.

لكن غارد كان شيئاً مختلفاً تماماً.

لقد أحبت، على كل حال، السيد «ديبوا»، وأدركت بنفسها، دون حاجة إلى معلومات غارد، أنه من النوع التقليدي.

قال غارد وهو ينظر إلى ساعته:

ـ لسوء الحظ، لدي اجتماع آخر عصر اليوم، وإلا لذهبت معك إلى السوق!

قالت له باختصار:

ـ لا داعي، شكراً.

إن آخر ما تريده هو أن يقف غارد معها في متجر أزياء ليخبرها بما عليها أن تشتري. سألها:

ـ ما رأيك بتناول الغداء؟

أجابت كاذبة:

ـ لست جائعة.

تبدّدت الآن تلك الغبطة التي كانت تشعر بها. لم يجعلها غارد غاضبة فقط بتعليقاته على ملابسها، وإنما... وإنما ماذا؟ جرح كرامتها؟ آلمها؟ هذا مستحيل. لا شيء مما يقوله غارد يمكن أن يحدث فيها هذا الأثر. ذلك لأن ليس له عليها مثل هذا التأثير.

ـ إذا كنت بحاجة إلى نقود، يا روزي...

لكنها هزت رأسها نفياً قائلة بغضب:

ـ بمقدوري شراء ملابسي، يا غارد.

ـ نعم، أعلم هذا! اسمعي، يا روزي! عندما تعثرين أخيراً على رجلك الكامل الرائع، أرجو أن تتذكري كم ما زلنا، نحن الرجال، رجعيين، من طراز ما قبل التاريخ.

سألته بارتياب:

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنه، بالرغم من أنني لا أكره شيئاً كما أكره المرأة التي تلتصق بالرجل كالنبات المتسلق، إلا أننا، نحن الرجال، ما زلنا نستمتع بكوننا نستطيع تدليل نسائنا وإطلاق العنان لهن.

ـ بمكافأتهن على حسن سلوكهن! بشراء أشياء تلقونها اليهن كما تلقون بقطعة بسكويت إلى الكلب؟

قالت ذلك متحدية، وعيناها تنضحان ازدراءً وغضباً وهي تتابع:

ـ الرجل الذي أحب، ينبغي أن يعاملني معاملة الندّ للندّ يا غارد، في كل شيء. آخر شيء يريده هو أن أشعر نحوه بالامتنان لأي شيء. ما سيعطيه الواحد منا للآخر، يعطيه إياه مجاناً.

سكتت فجأة مقطبة جبينها وهي ترى كيف كان غارد ينظر إليها:

ـ ما هذا؟ ماذا حدث؟

سألته ذلك مترددة. لم تره قط من قبل ينظر إليها بهذا الشكل، ويحدق إليها بمثل هذا التركيز العنيف. أجاب بخشونة:

ـ لم يحدث شيء! ولكن، يوماً ما، يا روزي، سيكون عليك أن تنضجي وتختبري الألم الذي يرافق مثل هذه المثالية. وعندما يحدث ذلك، أرجو أن يكون بجانبك من يلملم حطامك...

تمتمت بتمرد، بصوت منخفض:

ـ على أن لا تكون أنت ذلك الشخص.

* * *

مضت ساعة تقريباً منذ أنزلها غارد في منطقة التسوّق في المدينة، لكنها حتى الآن لم تجد شيئاً يعجبها. أخذت روزي تفكر في ذلك وهي تقف بجانب متجر صغير، تتفرج على الثوب المعروض في واجهته، والمصنوع من المخمل الأسود والتافتا. كان قسمه الأعلى من المخمل الأسود، بينما انحدرت فتحة العنق قليلاً عن الكتفين، هذا إلى كمين طويلين ضيقين. كان المخمل محكم التفصيل حول الخصر بينما كانت التنورة التافتا تتسع من فوق الوركين مباشرة.

القماش النفيس واللون الأسود منحا الثوب مظهراً رصيناً. لكن التنورة جعلته ثوباً للفتيات لا يلائم امرأة كالمدام الكونتيسة، مثلاً.

دخلت روزي المتجر مملوءة بعزم. قالت البائعة متشككة عندما سألتها روزي عن الثوب:

ـ إنه قياس صغير جداً... ولكن، نعم قد يلائمك!

أضافت الجملة الأخيرة بعد أن خلعت روزي معطفها لتجريب الثوب. وأخذت تتأمل صورتها في المرآة.

كان سواد المخمل يبرز لون بشرتها العاجي، وخصلات شعرها التي تلامس كتفيها المكشوفين تُضفي عليهما شيئاً من النحول ما جعلها تقطب جبينها قليلاً.

قالت البائعة بحماس:

ـ إنه مصنوع لك خصيصاً.

أجابت مترددة

ـ ولكنه غالي الثمن.!

كان عليها أن تشتري حذاءً جديداً يلائم الثوب. وفي النهاية، كانت عادة غارد في السخرية من ملابسها وذوقها، هي التي جعلتها تحزم أمرها بينما البائعة تؤكد لها أنها لن تندم على شرائه وهي تلفه لها، قائلة:

ـ إنه ثوب كلاسيكي لا يبطل طرازه.

وتابعت روزي طريقها إلى متجر الأحذية الذي سبق ومرت به. وعندما وافاها غارد، في ما بعد إلى المكان المتفق عليه، كان الشيء الوحيد الذي قاله:

ـ إذن، فقد وجدت شيئاً يعجبك!

كانت تحمل عدة أكياس أخرى بالإضافة إلى الثوب.. حذاءً، حقيبة يد صغيرة للسهرة تلائمهما، وشاحاً ناعماً من الكشمير لتلبسه فوق الثوب، صندوقاً صغيراً مزخرفاً من طراز القرن الرابع عشر

www.elromancia.com

وجدته في حانوت للتحف اشترته هدية لابنة السيد «ديبوا».

في الطريق إلى الحفلة، أخذت تفكر في أنه ربما كان من الأصوب لو اشترت شيئاً عادياً، لكن هذا الصندوق كان رائع الجمال.

ـ تباً لي!

قال غارد ذلك فجأة، ما جعل روزي تنظر إليه مستفهمة وتابع مفسراً:

ـ كنت أريد أن أطلب منك شراء هدية لابنة السيد «ديبوا»، لكن الوقت فات الآن و...

قالت وهي تلتفت إلى المقعد الخلفي تتناول اللفافة التي سبق ووضعتها هناك:

ـ لكنني اشتريت لها هدية، فعلاً.

ثم فتحت اللفافة تريه الصندوق المزخرف. عندما لم يقل شيئاً، هبط قلبها قليلاً، يبدو أنه لم يعجبه! تملكها الغضب. لا بأس، فقد أعجبها هي...

ـ أتعلمين يا روزي؟ إنك تدهشينني أحياناً. تتظاهرين بعدم اهتمامك بالأشياء القديمة، وتعلنين أن من الإجرام تقريباً الاحتفاظ بمكان مثل «مرج الملكة» منزلاً خاصاً، ومع ذلك تذهبين لتشتري شيئاً كهذا...

ـ إذا لم يكن يعجبك...

قالت ذلك بتحدّ، لكن غارد سارع إلى القول:

ـ كلا، لا أقصد... إنه رائع الجمال!

جعلها مديحه غير المتوقع لا تدري ما تقول. رفعت بصرها إليه فباغتتها نظرته، لكأنه.. كأنه.. وتملكها شعور غريب غير مألوف.

ـ روزي!...

لماذا تشعر الآن بقشعريرة لنطقه باسمها، وهي التي طالما سمعته يتلفظ به من قبل؟ لماذا تذكرها طريقة لفظه له بالماء الرقراق في النهر؟ باحتكاك المخمل الناعم بالبشرة؟ بهمس العاشق لحبيبته...؟

اندفعت تتكلم بسرعة، محاولة التخلص من هذه الأفكار الخطرة:

ـ حتى إنني تذكرت شراء ورق ملوّن، يا غارد، وبطاقة. أتعرف اسمها؟ كان يجب أن أسأل عنه السيد «ديبوا». أرجو ألا تظننا متطفلين، فهذه حفلتها وهي لا تعرفنا.

ـ أعتقد أن اسمها «هلواز». لا أظنها ستكره حضورنا.

قال ذلك وقد ران عليه فتور مفاجىء.

لم يتكلم بعد ذلك إلا حين وصلا، فقط ليقول إنهما، ما داما لم يتغديا، ولا بد أنها جائعة، لهذا سيسأل المدام عما إذا كان ممكناً أن يتناولا الغداء في جناحهما.

ـ آه! هذا حسن! أنت جاهزة إذن، سنكون هناك في الوقت المناسب، ولكن...

أحست روزي بالارتباك حين سكت غارد فجأة وراح يتأملها. أخذت تنظر إليه مترددة من باب غرفة النوم المفتوح.

في المتجر، كانت واثقة من حسن اختيارها للثوب، لكنها الآن، فجأة، لم تعد واثقة.

صَمْتُ غارد، والطريقة التي ينظر بها إليها... استجمعت ثقتها بنفسها وقالت:

ـ ماذا حدث؟ إذا لم يكن الثوب مناسباً...

هز غارد رأسه وهو يسير إلى حيث سترته فيرتديها:

www.elromancia.com

ـ بل هو ممتاز...

بدا صوته متوتراً على غير عادة، أبحّ قليلاً، فانصرفت بذهنها عن مظهرها هي إلى حركات عضلاته تحت القميص الأبيض، شاعرة بجفاف في حلقها.

فجأة أصبحت أحاسيسها مرهفة بشكل غير عادي، ما جعلها تشم رائحة جسده رغم بعد المسافة بينهما. تسارعت خفقات قلبها. احمر وجهها، واستدارت بسرعة عائدة إلى غرفتها وهي تقول بصوت عال:

ـ وشاحي!... كدت أنساه في هذا الجو البارد...

هل استطاع غارد أن يسمع الارتباك والاضطراب في صوتها كما سمعته هي؟ لم تكن تشعر أبداً بالبرد، ولكن أي تفسير آخر يمكن أن تقدمه لارتجاف جسدها؟

ـ هل تشعرين بالبرد؟

سألها هذا وهو يتبعها إلى غرفة نومها، مقطباً جبينه. أجابت وهي تضم الوشاح حولها بإحكام.

ـ كنت كذلك لكنني الآن بخير. ظننت... ظننتك تريد الخروج. لا أريد أن نتأخر.

أجاب بجفاء:

ـ كذلك لا نريد أن نصل باكراً. ثم إننا، على كل حال، عروسان...

عندما أخذت تنظر إليه بحيرة، فسّر لها الأمر متجهماً:

ـ استعملي ذكاءك، يا روزي! نحن عريسان من المفترض أنهما غارقان في الحب. ولو كان الأمر كذلك حقاً، لما سمحت لك بالخروج من هنا بسهولة، ولما كنت تقبلين بالخروج!

كان صوته انخفض إلى حد الهمس، مشبهاً التنويم المغناطيسي،

وأطلق رجفة محمومة أخرى في كيان روزي، بينما تابع يقول:

ـ لو كنا حقاً عريسين مغرمين لكان ثوبك الصغير هذا مُلقىً على الأرض وأنت بين ذراعي.

صرخت وهي ترتجف:

ـ أسكت، يا غارد، أسكت! نحن لسنا مغرمين ببعضنا البعض. نحن لسنا... ليس الأمر بهذا الشكل.. و..

قال بجفاء:

ـ لا! من المؤكد أننا لسنا كذلك. هل أنت واثقة من أنك تريدين هذا الوشاح؟ تبدين متوهجة تماماً...

قال ذلك وهو يفتح لها الباب. حملقت روزي فيه وهي تهم بالخروج.

إنه يعلم جيداً ما الذي سبّب احمرار وجهها بهذا الشكل. تباً له!

عندما أسرعت تهبط السلم، تملكتها رجفة أخرى، أكثر حدة هذه المرة، مصحوبة بالألم، ما جعلها تعض شفتها بحدة لتكبحها.

خافت من أن تشعر بالاستغراب والضيق بين أناس لا تعرفهم، أو أن تكون ابنة السيد «ديبوا» كارهة دعوة أبيها لهما. مخاوفها تلك سرعان ما تلاشت، ليس فقط أمام حرارة ترحيب السيد «ديبوا» وزوجته، وإنما من الاستقبال الحماسي الذي تلقياه من «هلواز» نفسها. وسرعان ما رأت روزي نفسها وسط مجموعة من الشابات والشبان، بينما بقي غارد يتحدث إلى مضيفه ومضيفته.

كانت «هلواز» وأصدقاؤها مجموعة ذكية مليئة بالحيوية من شبان وشابات أخذوا يتحدثون عن آرائهم ومعتقداتهم بصراحة، مازحين مع روزي قليلاً لما رأوه من استنكارها مفهوم المواطنية الأوروبية. لكنها سرعان ما اكتشفت أنهم، مثلها، يهتمون كثيراً بأحوال البائسين، ثم

www.elromancia.com

وجدت نفسها مستغرقة في حديث مع أحد أصدقاء «هلواز» عن المشكلة المتفاقمة لمتشردي المدن.

رغم أن هذا الفتى، واسمه «رينولد»، لم يكن يشبه، رالف شكلاً... إذ كانت بنيته أكثر صلابة، وشعره كثيفاً جعداً بنّي اللون، وكذلك لون عينيه اللتين كانتا تطفحان حرارة وإعجاباً كلما نظر إليها... إلا أنه كان يشارك رالف كثيراً من مثله العليا التي يغلفها بروح مرحة تنقص رالف.

قال يخاطبها بحماسة وهو يفصلها عن الآخرين ليتمكن من التحدث إليها على انفراد:

ـ يخيل إليّ أنَّ هذه مشكلة عامة في كل البلاد. يبدو لي أننا جميعاً سنستفيد كثيراً من تبادل الآراء والخبرات، ومشاركة بعضنا بعضاً ما نتعلمه.

قالت مازحة:

ـ أتعني أن نقيم مؤتمراً؟

ـ ربما نتدبر شيئاً أقل تمسكاً بالشكليات من المؤتمرات. إنني أذهب إلى انكلترا أحياناً لإداء بعض الأعمال، وسيهمني أن أزور الملجأ، إذا كان ممكناً ترتيب هذا الأمر.

أجابت بحماسة:

ـ أنا واثقة من إمكانية ذلك، وأعلم أن رالف سيهتم جداً بالتعرف إليك.

ـ لكنك تعيشين خارج لندن كما أخبرتني. هل هنالك فندق...؟

قالت بسرعة:

ـ آه، لن يكون ثمة ضرورة لذلك. يمكنك أن تقيم معنا.

فقال برقة:

ـ إنني الآن أتطلع بشوق إلى ذلك.

قالت «هلواز» لها مازحة وهي تنضم إليهما بعد ذلك بعشر دقائق:

ـ لا تنظري إلى رينولد بجد أكثر من اللازم. إنه مغازل رهيب...

قال رينولد محتجاً، دون أن يخجله كلامها:

ـ أنت غير منصفة، يا «هلواز». أنا جاد تماماً في ذلك.

كان الثلاثة ما زالوا يضحكون عندما جاء غارد لينضم إليهم بعد عدة دقائق. قال لروزي، موضحاً للآخرين:

ـ آسف لأن الوقت حان لذهابنا. علينا أن نستقل الطائرة في الصباح الباكر.

ـ أهكذا سريعاً؟!

قالت روزي ذلك باحتجاج، غير قادرة على إخفاء دهشتها حين أخبرها غارد عن الوقت. وعندما صارا في السيارة متجهين إلى القصر، قال:

ـ لا حاجة لأن أسألك إن كنت استمتعت بالحفلة.

كان في صوته نبرة لم تفهمها روزي. لم تكن غضباً أو ضيقاً بالضبط، إنما...، شيء ما...

ـ يبدو أنكما، أنت والفتى «رينولد بريسيه» وجدتما الكثير لتتحدثا عنه.

الفتى رينولد...؟ قطبت روزي جبينها. كان رينولد أخبرها، في غمرة الحديث، أنه احتفل لتوّه بعيد ميلاده الخامس والعشرين، وهذا ربما يجعله أصغر سناً من غارد، لكنه طبعاً لا يجعله يستحق

www.elromancia.com

نبرة الاحتقار الغريبة في صوت غارد. قالت بلهجة المدافع:

ـ كان يحدثني عن اشتراكه في مشروع ملجأ مماثل لملجئنا. بدا عليه الإهتمام البالغ بعملنا. وأنا... أنا دعوته لزيارتنا والتعرف إلى رالف عندما يذهب إلى لندن لقضاء أعماله.

أسرعت بكلامها متجنبة النظر إلى غارد أثناء كلامها.

أما لماذا تملكها شعور بأنها أخطأت بعض الشيء.. وأنها، بشكل ما، أغضبت غارد؟ فهذا ما لم تجد له تفسيراً واضحاً.

قال غارد باستفزاز:

ـ وهل هذا سيكون غرضه الوحيد من زيارته؟ أن يتعرف إلى رالف؟

ارتاحت روزي لجو السيارة المعتم الذي أخفى احمرار وجهها. فقد تضمن صوت غارد شيئاً من التوتر عزّز شكها السابق. قالت:

ـ طبعاً، أي سبب غير هذا يجعله يحضر؟

ـ هيا، يا روزي! حتى أنت لست بهذه السذاجة! كان واضحاً تماماً أن «رينولد بريسيه» أكثر اهتماماً بتفحص سريرك منه بتفحص أسرَّة الملجأ.

قالت محتجة:

ـ هذا ليس صحيحاً، حتى ولو كان ذلك...

سكتت فجأة وهي تدرك أن الادعاء الذي كادت تتفوّه به، وهو أن هذا ليس من شؤون غارد، هذا الادعاء لم يعد صحيحاً تماماً. أدركت أنها نسيت تقريباً علاقتهما الجديدة. سألها بصوت خشن:

ـ حتى ولو كان ذلك، ماذا؟ أنك غير مهتمة به؟ ليس هذا ما لاحظته.

ـ كنا نتحدث، وهذا كل شيء.

قالت ذلك وهي تفكر... ما الذي حدث لغارد؟ كان يبدو تقريباً وكأنه... وكأنه ماذا؟ كأنه يغار؟ هذا مستحيل! ورغم ذلك، فإنها لم تفعل شيئاً يستحق غضبه. ابتدأت السعادة، التي شعرت بها في الحفلة، تتبدد. أشاحت بوجهها عن غارد وأخذت تنظر من النافذة إلى الظلمة.

شعرت برجفة خفيفة وهي تتذكر ما كان بيتر قاله لها عندما سألته كيف سينهيان، هي وغارد، «زواجهما»!، قال لها، آنذاك، محذراً:

ـ سيكون عليكما البقاء معاً سنة على الأقل! أيّ مدة أقل من تلك يمكن أن تثير الشكوك. بالإمكان في البداية، اختيار الانفصال وبعد ذلك تتجهان نحو الطلاق.

سنة على الأقل! بدا لها ذلك مدة طويلة... طويلة جداً. سمعته يقول متوتراً:

ـ لا فائدة من العبوس والصمت، يا روزي! إنك تعلمين ما هو الوضع.. الدور الذي وافقت عليه، واخترت القيام به. إنك عروس جديدة. والعروس الجديدة لا تتجاهل زوجها لتعبث مع رجل آخر.

قالت بغضب:

ـ إذا كنت تعني رينولد، أنا لم أكن أعبث معه. كنا نتحدث فقط.

سكتت والتفتت إليه بعينين ملتهبتين. كان يركز اهتمامه على الطريق، وعيناه مسمرتان أمامه وقد توتَّر فكه. قالت له برعونة:

ـ ربما لست قادراً على التحدث مع امرأة من دون أن تعبث معها، يا غارد! ولكن ليس كل الرجال مثلك، والحمد الله!

قال بخشونة:

ـ هذا صحيح! أشك في أن عزيزك الغالي رالف، مثلاً، أو

www.elromancia.com

«رينولد بريسيه»، مستعد للمجازفة بسمعته في زواج احتيالي، فقط لأجل...

وعندما سكت ألحت عليه بالقول:

ـ فقط لأجل ماذا؟ لأنني طلبت منك ذلك؟ إنك غير منصف، يا غارد. إننا، نحن الاثنين، نعلم بالضبط لماذا وافقت أنت على هذا الزواج. إنك تزوجتني لأنك تريد المنزل.

شعرت روزي، وهي تقول هذه الكلمات، بغصة في حلقها حين اكتسحتها موجة عنيفة من الشعور بالوحشة.

لم تكن تريد زواجاً زائفاً.. زوجاً لا يكن لها حتى نوعاً خاصاً من المودة، وليس الحب. آخر شيء كانت تريده هو أن تعيش حياة ملؤها الكذب والخداع.. أن تعيش مع رجل لا يشعر نحوها بسوى الاحتقار ويسخر منها على الدوام.

كل ما تقوم به هو ضد مبادئها. لا عجب إذن من شعورها بعدم الرضا عن نفسها، ومن كل هذا التوتر والتعاسة. كانت حمقاء إذ أصغت إلى بيتر، وظنت أن...

ـ وطبعاً، فإنَّ الرجال أمثال رالف ورينولد في هذا العالم هم غاية في الكمال والتعقل ليفكروا بشيء كهذا. هل هذا ما تظنينه؟ لا تخدعي نفسك، يا روزي! لو أنك ألقيت بأوراق ملكية «مرج الملكة» طعماً أمام رالف، لما فكر مرتين بما يتضمنه مثل هذا الزواج أخلاقياً. أما بالنسبة إلى رينولد، لا أدري إذا كان فكر في أن يخبرك، أثناء مثابرته على مغازلتك، أن أسرته وأسرة «هلواز» متفقتان منذ سنوات على أنهما، هو وهي، سيتزوجان في النهاية؟ إنهما قريبان تربط بينهما أمور معقَّدة متعلقة بالأملاك والعمل... والزواج بينهما سيحل كل هذه الأمور بشكل حسن جداً بالنسبة إلى الأسرتين. وإن كان هذا

لا يمنعه من أن يغازلك.

ـ أسكت!... أسكت.

أخذت روزي تصيح به وهي ترتجف، رافعة يديها تغطي بهما أذنيها وهي تسأله بعنف:

ـ لماذا تنتقدني دوماً وتسخر مني؟ لماذا تفسد كل شيء بالنسبة إليّ؟ إنني لست حمقاء، على الإطلاق يا غارد، مهما كان ظنك بي! وإذا كنت أختار وأفضّل أن أرى محاسن الناس، فهذا لا يعني أنني قليلة الحذر.

وعندما أخذت تغالب دموع الغضب التي أوشكت على الانهيار، أشاحت بوجهها عنه وهي تقول بصوت منخفض متألم:

ـ لا بأس! ربما كان رالف سيوافق على الزواج مني لو أنني قدمت إليه «مرج الملكة». لكنه، على الأقل، ما كان ليأخذ البيت لنفسه، وإنما...

قاطعها غارد بخشونة:

ـ لكان دمره تماماً مثل إدوارد! إكبري، يا روزي! هل تصدقين حقاً أن رالف كان سيهتم مثقال ذرة بالمنزل وتاريخه؟ وأنه ما كان ليسحب أخشاب الجدران، ببالغ السرور، ليغطي بها السلم إذا وجد ذلك ضرورياً لمؤسسته الخيرية؟ هل تعلمين ماذا كان سيحصل «لمرج الملكة» في مثل تلك الظروف؟ إذا كنت تظنين أن أي شيء... أي شيء، على الإطلاق، من المنزل الأساسي كان سيبقى مألوفاً لأبيك أو جدك في الوقت الذي ينتهي فيه رالف وجماعته منه، أنت إذن حمقاء.

قالت غاضبة:

ـ إنك لم تحب رالف قط، أليس كذلك؟ كنت دائم السخرية

www.elromancia.com

منه. حسناً، لا تظنني لا أعلم السبب، يا غارد...

سكتت روزي فجأة وهي تلتفت إليه لترى تأثير كلامها هذا عليه. لم يبد عليه ما توقعت. لا الغضب البالغ ولا السخرية...

كان فكه متوتراً وكأنه يحاول السيطرة على نفسه. رأت النظرة التي بدت في عينيه وهو يلتفت إليها. تملكتها رجفة لا إرادية وهي تسمعه يقول بنعومة:

- استمري، يا روزي...

آه، كم تمنت لو أنها لم تبدأ هذا الحديث قط! لكن فات أوان التراجع الآن!.. قالت تتحداه بشجاعة:

- إنك تكره حقيقة أنه ليس مثلك. إنه لا يهتم بالمال أو المادة، لأنه...

أجفلت حين أخذ غارد يضحك، وتملكها الاضطراب لردة فعله غير المتوقعة هذه التي نبهتها وحذرتها أكثر مما لو كان ثار غاضباً منها مستنكراً مزاعمها. قال معنفاً:

- رالف لا يهتم بالمال؟ لماذا إذن يزعجني على الدوام بطلب التبرعات للملجأ الغالي؟

- هذا أمر مختلف. إنه لا يريد المال لنفسه. إنه...

- لا؟ هل هذا ما تظنينه حقاً يا روزي؟ لا بأس. أنا أوافقك على أنه لا يطلب المال لينفقه على نفسه، وعلى شراء أملاك لنفسه، لكنه حتماً يريد المجد الذي يعرف جيداً أنه سيحصل عليه بتحويله ذلك المكان الحقير المثير للشفقة إلى مبنى أفخم وأكبر حجماً وأهمية.

عضت روزي شفتها وحوّلت نظراتها عنه. رغم ما في كلام غارد من قسوة، إلا أنه كان يحتوي على بذرة من الحقيقة هي، أكثر نزاهة وصدقاً من أن تنكرها.

شعرت بالارتياح وهي تدرك أنهما وصلا إلى مدخل القصر. ولعل المدام تنتظرهما في الردهة، أو بالأحرى تنتظر غارد.

- ماذا..؟ لا شيء تقولينه عن نفسك، أو تدافعين به عن عزيزك رالف! ولا أدري سبب ذلك.

قال غارد ذلك ساخراً وهو يوقف السيارة أمام القصر. لكنها لم تهتم بأن تجيبه. وما الفائدة، على كل حال؟

أخذت روزي تخلع ثوبها، متعبة. لم تكن المدام في انتظارهما، ولكن عندما وصلا إلى جناحهما، أعلن غارد أن لديه عملاً عليه إنجازه. ثم جلس خلف المكتب متجاهلاً إياها كلياً، وهذا بالضبط ما تريده هي. أما لماذا جعلها هذا متضايقة سيئة المزاج، فلم يكن لديها أي تفسير. لا يمكن أن يكون السبب هو خسارتها نقاشاً معه، حتى ولا شعورها بالغم من عبء هذا الدور غير المألوف ولا المرغوب فيه.

قطبت جبينها عندما تعطّل سحّاب ثوبها. تملكها الضيق وحاولت إصلاحه.

بعد عشر دقائق، وبعد أن آلمتها ذراعاها فيما لا يزال السحّاب معطلاً، اعترفت بالهزيمة، مدركة أن ليس أمامها سوى خيارين.. إما أن تنام بثوبها هذا، وإما أن تلتمس المساعدة من غارد.

سارت على كره منها إلى باب غرفتها تفتحه ثم تقف في العتبة تنظر إلى غارد مترددة، بينما هو منكبّ على عمله. كان ظهره نحوها. بدا منكباً على عمله بحيث ترددت روزي في مقاطعته... ربما إذا هي حاولت مع السحاب مرة أخرى...

- نعم، يا روزي! ماذا تريدين؟

قفزت نظرات روزي المجفلة لتقابل نظرات غارد الذي وضع

القلم واستدار نحوها.

ـ إن السحّاب في ثوبي معطل و...

ـ الأفضل أن تأتي إلى هنا وتقفي في الضوء لأتمكن من رؤية ما أقوم به بشكل صحيح.

قال ذلك مشيراً إلى وسط الغرفة.

ـ ربما أنت تكبرين رغم كل شيء.

قال ذلك بجفاء وهو يمسك بكتفيها ليتمكن من فحص ظهر ثوبها.

سألته متصلبة:

ـ ماذا تعني؟

حاولت أن تستدير، شاعرة بأنه أخذ يسخر منها مجدداً، لكن غارد كان يمسك كتفيها بشدة منعتها من الحركة.

تملكها شعور غريب لإحساسها بأنامله على بشرتها، ولرؤيتها صورتهما معاً في المرآة التي تعلو المدفأة. صورتهما معاً في وضع حميم كان يمكن أن يكون لعاشقين...

أحست بقشعريرة خفيفة، وتنبّهت إلى أنها ترى غارد، ليس كما تراه دائماً، وإنما بصفته رجلاً!.. ماذا لو كان غارد هو الذي تعرفت إليه في الحفلة هذه الليلة، مثلاً، وهو الذي مدحها وغازلها؟..

خفضت نظراتها إلى الأرض، شاعرة بشيء من الخجل لاتجاه أفكارها على هذا النحو. سألها برقة:

ـ متى حدث هذا، يا روزي؟ متى أصبح إصلاح ثوب أهم لديك من عدائك نحوي؟

قالت كاذبة:

ـ لا أدري ماذا تعني!.

هل هو دليل نضج لديها أن تفضّل طلب العون من غارد على تمزيق ثوبها؟ إذا كان الأمر كذلك، فقد بدأت تتمنى لو أن قرارها كان أقل نضجاً.

إنها تشعر الآن بالتوتر يزحف على امتداد جسمها فيما غارد يتفحّص السحاب، مزيحاً شعرها من طريقه.

كانت قرأت في الروايات عن أنفاس الحبيب، لكنها كانت تسخر من ذلك معتبرة إياه مبالغة كبرى. أما الآن... ابتلعت ريقها بصعوبة، مكوّرة أصابعها بشكل قبضتين صغيرتين مرتجفتين بينما تلفح حرارة أنفاس غارد ظهرها. قال بغيظ:

ـ اهدئي، يا روزي!

قوله هذا جعلها تدرك ما كانت تفعل. كانت لا إرادياً تميل بظهرها إلى الخلف لتلتصق به وكأنها...

قالت محاولة الإبتعاد عنه:

ـ آه، دعه، يا غارد!

تملكها الذعر إذ انتبهت إلى أن هناك شيئاً مريباً جعل المشاعر تشتبك في كيانها.

ـ اهدأي! يمكنني أن أرى المشكلة الآن. هنالك قطعة صغيرة من القطن مشتبكة بالسحّاب. أظنني سأتمكن من نزعها.

ـ أين؟ دعني أراها... ربما يمكنني نزعها بنفسي.

قالت روزي ذلك محاولة الابتعاد عن غارد والاستدارة، في الوقت نفسه، لتنظر من فوق كتفها. ولكن عندما تقدمت إلى الأمام، كان غارد تمكن من إطلاق السحّاب، تاركاً المخمل اللين الناعم ينزلق عن كتفيها والقسم الأعلى من جسمها.

تمسكت روزي، بذعر، بالمخمل، متسمّرة مكانها من المفاجأة

www.elromancia.com

وقد التهب وجهها بينما أخذ غارد يتفحصها بنظره.

ـ كفى، يا غارد، كفى! لا تحدق إليّ بهذا الشكل!

انفجرت تقول بصوت يماثل جسدها ارتجافاً. أرادت أن تستدير هاربة، لكنها، لسبب ما، لم تستطع أن تتحرك. بقيت جامدة في مكانها بينما نظرات غارد تتجول فوقها. قال برقة:

ـ بأي شكل؟ إنني، على كل حال، زوجك يا روزي. في الحقيقة...

عندما تقدم خطوة نحوها، حملقت فيه بعينين واسعتين ذاهلتين وهي ترتجف، غير قادرة على سلخ نظراتها عنه. تابع يقول برقة:

ـ وفي الحقيقة، هل لديك فكرة عما تفعلينه بي في هذه اللحظة، وأنا أراك بهذا الشكل؟ لو أنك تعمدت هذا العمل، لما تمكنت من اختيار وضع أكثر إثارة، هل تعلمين ذلك؟ لو كنت حقاً زوجك، يا روزي، ما وقفت هكذا أتحدث إليك!

عندما سمعها تصدر شهقات صغيرة متتابعة، قال معنفاً:

ـ ماذا حدث؟ من المؤكد أنك لست بريئة ساذجة إلى هذا الحد...

ـ لا!... لا!...

صرخت روزي باحتجاج وهي تستدير هاربة إلى غرفتها ثم تصفق الباب خلفها وتستند إليه، بينما جسدها يرتجف كمن به حمّى، وقلبها يخفق بعنف أشعرها بالغثيان. دموع العذاب التي انهمرت على وجنتيها من بين أجفانها المغمضة لم يكن لها علاقة بالحرج البالغ، أو الغضب من غارد لما فعل.

منذ لحظة واحدة فقط، كانت تستمع مسحورة إلى رقة صوته!

الصدمة، الشعور بالحرج، بالذنب، بالخوف... كل ذلك

شكل لها نوبة من الذعر والألم الغامض.

ابتعدت روزي عن الباب ببطء وهي ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها، شاحبة الوجه من تأثير الصدمة.

ما الذي يحدث لها؟ ما الذي حدث لها؟

اغتلست بسرعة ثم خرجت من الحمام واستعدت للنوم، رافضة النظر إلى صورتها في المرآة.

توهج وجهها احمراراً. لا بد أن شيئاً غير عادي حدث لها إذ تتصور غارد يغازلها برقة وهي تستجيب له!.

إنه فقط خداع مخيّلتها، كما أخذت تطمئن نفسها، وغداً ستتغيّر مشاعرها وتعود إلى حالتها الطبيعية.

* * *

٧ ـ بين عدوها وزوجها

ـ ماذا حدث يا روزي؟ لا أظنك ما زلت مستاءة لأنني أفسدت عليك الغزل مع رينولد، أليس كذلك؟

سألها غارد هذا بجفاء. التفتت روزي إليه بحذر، وهي تمدّ يدها إلى حزام الأمان عندما أعلن المضيف في الطائرة أنهم على وشك الهبوط.

هل نسي غارد، حقاً، ما حدث تلك الليلة؟ ما قاله لها، والطريقة التي نظر بها إليها؟ كان مقطباً جبينه قليلاً وهو يربط حزامه، وشيء من نفاذ الصبر يوتّر فمه.

هذا الصباح، بدا غارد مختلفاً تماماً. من المستحيل أن يكون هو نفسه ذاك الرجل الذي نبهها إلى ذاته، وإلى نفسها بشكل مثير.

أتراها بالغت في ردة فعلها إزاء ما حدث؟ هل ضخّمت الأمور أكثر مما هي عليه؟ وهل كان ضرورياً بقاؤها مستيقظة معظم الليل، خائفة من مواجهة غارد في الصباح، ومما قد يقوله؟

وعندما لم يشر في الصباح إلى ما حدث، شعرت بما يشبه الخيبة. ليس هذا فقط، وإنما عاد يعاملها وكأنها طفلة مزعجة أكثر منها...

أكثر منها ماذا؟ امرأة؟ تملكها انقباض مؤلم في صدرها، وسرت

في وجهها وجسمها حرارة أشعرتها بالضيق.

عندما استقرت الطائرة على المدرج، قال غارد لها:

ـ هيا، يا روزي! ليس علينا أن نرجع بمظهر يدل على أننا متخاصمين.

أجابته بتكلُّف:

ـ أنا لست مستاءة، أنا... متعبة فقط. هذا كل شيء.

ـ متعبة... بعد رحلة عمل دامت يومين؟ هذا غريب!

قال غارد ذلك ساخراً، متجاهلاً احمرار وجهها خجلاً، ثم تابع.

ـ سأوصلك إلى «مرج الملكة» وبعد ذلك عليّ أن أذهب إلى مكتبي لمراجعة بعض الأمور، ثم إلى شقتي. هل طلبت من السيدة فرينتون أن تهيّء لنا غرفة؟

هزت روزي رأسها. هي تعلم أنها تتصرف كالنعامة. لكنها حتى الآن لم تستطع أن تحمل نفسها على مواجهة النواحي العملية التي يفرضها الزواج.

ليلة زفافهما، كانت رقدت في الغرفة التي تحتلها منذ طفولتها، بينما رقد غارد في واحدة من غرف الضيوف. لكنها تعلم الآن أن لا سبيل للحفاظ على مظهر زواجهما إذا استمرا في النوم في غرفتين يفصل بينهما ممر طوله نصف ميل تقريباً.

ـ أنا... فكرت في أن هناك غرفتين للضيوف يصل بينهما باب داخلي؛ فإذا نظمت الفراش بنفسي، عند ذلك لا يمكن للسيدة فرينتون أن...

فقاطعها:

ـ لا يمكن للسيدة فرينتون ماذا؟ لا يمكنها أن تعلم أننا نرقد في غرفتين منفصلتين؟ هذا رائع يا روزي ما دامت لا تعلم. أما إذا انتشر

الخبر بأننا نرقد في غرفتين منفصلتين، فيمكنك أن تثقي بأن محامي إدوارد سرعان ما يطرق بابنا. . .

ارتبكت روزي، فسألها:

ـ ألا توجد غرفة نوم بسريرين؟

ـ هناك في غرفة المخزن، وسيبدو الأمر غريباً شاذاً إذا رقدنا فيها.

قال بلهجة مطاطة:

ـ هذا صحيح.

وفي طريقهما إلى البيت، قال ساخراً:

ـ ابتهجي!. إنها سنة واحدة فقط. ثم، من يدري؟ ربما سيعجبك ذلك في النهاية.

قالت باستنكار وتحدٍّ:

ـ أبداً.!

لكنها، على الفور، تذكرت ما شعرت به الليلة الماضية، فاحمر وجهها.

ألقى عليها نظرة جانبية وهو يقول محذراً:

ـ حذار، يا روزي! فقد يعتبر الرجل هذا الكلام تحدياً ويحاول أن يثبت لك أن. . .

وفيما كانت روزي تشعر بالتشنج، رافضة كلام غارد، انعطف بالسيارة صاعداً في طريق البيت، وإذا به يقطع كلامه فجأة ليسألها:

ـ أليست تلك سيارة إدوارد؟

أجابت بفتور: «بلى!».

ـ . . . أتساءل ماالذي يفعله هنا. أتظنينه يقيم لنا حفلة ترحيب بالعودة إلى البيت؟ يا له من إنسان حساس يهتم بالآخرين!

قالت متجهمة الوجه:

ـ ما كان إدوارد يوماً حساساً. كانت له دوماً دوافعه الخفية.

ـ . . . وليس هناك مكافآت لمن يتكهن بها هذه المرة، أليس كذلك؟

عندما نظرت روزي إليه مستفهمة، قال مفسراً:

ـ المنزل، يا روزي، المنزل!.

ـ لكن فات أوان ذلك، هو يعلم الآن أننا متزوجان.

أخذت تتساءل بقلق عما يفعله إدوارد في البيت. إنه يعلم مقدار كراهيتها له وعدم رغبتها في وجوده.

نبهّها غارد وهو يفتح الباب الثقيل:

ـ ابتسمي يا روزي، ابتسمي!

عندما أمسك لها الباب لتمر، كان عليها أن تحتك به في مرورها، فبدا وكأنه يلفّها بذراعه وعندما التفتت إليه لتقول إن آخر شيء تفكر فيه هو الابتسام، نظر إليها متمتماً:

ـ وضعك هذا جيد جداً، وإذا ازددت اقتراباً مني وفتحت فمك قليلاً ربما يظن الناظر أنك تريدينني أن أقبلك. . .

أن يقبّلها! بدا السخط في عيني روزي. وقبل أن تقول شيئاً، أسرعت السيدة فرينتون إلى الردهة، تستقبلها بقلق بادٍ على وجهها:

ـ آه، يا روزي!. . أعني يا سيدتي. . .

ـ يمكنك مخاطبتي باسمي، يا سيدة فرينتون، يبدو عليك الاستياء! ماذا حدث؟

قبل أن تجيب المرأة، سمعت روزي شخصاً يهبط السلم، وعندما رفعت بصرها رأت أنه إدوارد يبتسم لهما ابتسامة التمساح

www.elromancia.com

الزائفة.

ـ آه، روزي... وغارد!

هتف بذلك، ثم تبددت ابتسامته وهو يهز رأسه باكتئاب:

ـ آسف للخبر السيء! اكتشفنا الأسبوع الماضي أن العيب الذي كان ظهر في بناء بيتنا وكنا نظنه بسيطاً، هو في الواقع خطر جداً. لذلك لم نجد أمامنا سوى الانتقال إلى هنا أثناء قيام العمال والمهندسين بعملهم. وقد تملك مرغريت القلق بشأن انتقالنا إلى هنا من دون إعلامكم بذلك. لكنني وبختها على هذا العناء، وإلا ما فائدة القرابة إذا لم يساعد الأقرباء بعضهم بعضاً عند الحاجة؟ وإلى أين نذهب؟ كان من المستحيل علينا الانتقال إلى فندق بكل أوراقي السرية، كما أن الضجيج سيصيب مرغريت بالصداع الرهيب الذي يعاودها في مثل هذه الحال. ثم عندما تبدأ العطلة المدرسية ويعود الولدان... قلت على الفور إن علينا الانتقال إلى هنا. ما زالت مرغريت في البيت تشرف على نقل آخر الأمتعة. لكنها سرعان ما تصل. لقد سمحت لنفسي بإعطاء السيدة فرينتون الأمر بتجهيز جناح الجدّ لنا. علينا طبعاً أن نحضر سريرين من غرفة المخزن. إننا نفضل هذا النوع من الأسرة هذه الأيام، لأن مرغريت لا تستطيع النوم جيداً...

ساد صمت مطبق أخذت روزي أثناءه تحدق في إدوارد، غير مصدقة ما سمعت.

ـ أنا مدرك طبعاً أنكما عريسان، لكنني أتعهد لكما بأنكما لن تشعرا بوجودنا هنا، كما ستجدين في مرغريت عوناً لك في شؤون البيت، يا عزيزتي روزي. إنها معتادة على إدارة البيوت الواسعة، وتنظيم الحفلات، وسائر الأمور المشابهة.

جذبت روزي نفساً متقطعاً، وفتحت فمها ثم عادت فأقفلته، غير واثقة مما عليها أن تقول. بدلاً من الكلام نظرت إلى غارد متوسلة. الحمد لله أنه معها ههنا. إنه يعرف كيف يتعامل مع إدوارد وكيف يحمله على مغادرة المنزل. لكنها ذهلت وهي تراه، بدلاً من أن يأمر إدوارد بالمغادرة على الفور، يقول له بلهجة عادية:

ـ جناح جد روزي! أظن أنه الجناح الرئيسي في المنزل!

فقال إدوارد بلطف:

ـ نعم، هذا صحيح!

ثم أضاف بلهجة اهتمام بدت لها زائفة:

ـ آه، عرفت من السيدة فرينتون أنكما، أنت وروزي، لا تستعملانه. يبدو أنها، في الواقع لا تعلم أين ستنامان...

أخذ ينقل نظرات الثعلب بينها وبين غارد، ثم عاد يقول:

ـ وطبعاً، الحمام الملحق بالجناح الرئيسي...

ـ ولهذا السبب، مع الأسف، عليك أن تختار غرفة أخرى.

هكذا قاطعه غارد بهدوء بينما اتسعت عينا روزي ذاهلة غير مصدقة. ما الذي يقوله غارد؟ لماذا لم يخبر إدوارد بأن عليه المغادرة فوراً؟

أجفلت حين مدّ غارد ذراعه حولها، وجذبها إليه. تصلب جسدها رافضاً بغضب وهي تحملق فيه، بينما هو يتابع:

ـ كنا، أنا وروزي، نتحدث لتوّنا أثناء رحلة العودة عن تجديد ذلك القسم من المنزل. إنني، في الواقع، أنوي الاتصال بالمهندس غداً. لأكون صادقاً معك، يا إدوارد، أعتقد أنك ستجد غرف الطابق العلويّ أكثر ملاءمة... خصوصاً، مع قدوم العطلة المدرسية وحضور الأولاد. وطبعاً، لأننا عريسان جديدان نرغب في العزلة،

كما قلت بنفسك.

ثم التفت إلى روزي قائلاً برقة:

- أليس كذلك، يا حبيبتي؟

لم ينتظر جواباً منها، لحسن الحظ، وكذلك إدوارد. قال إدوارد بحذر:

- أفهم من كلامك عن الطابق العلويّ أنك تعني غرفتي النوم في طابق الأمتعة القديمة، طابق الخدم...

- هذا صحيح! والآن، نرجو المعذرة، يا إدوارد، لأن علينا القيام ببعض الأمور. وبما أنك لست ضيفاً ههنا، فإنك لا تتوقع منا البقاء معك احتفاءً بك. آه، كما أظنك لن تستطيع استدعاء السيدة فرينتون لمساعدتكم. آسف لأنني أتصرف بشكل تدعوه روزي تزمتاً تقليدياً! يا إدوارد... أنا أعلم أنك لن تتأثر بما سأقول؛ وحيث أننا سنعيش تحت سقف واحد، أعرف أنك ستتفهم رغبتي في عدم دخولك أنت أو أسرتك إلى المكتبة والمكتب. بما أنني عريس، أحب أن أمضي كل ما أستطيعه من وقت مع عروسي، وهذا يعني أنني سأعمل، قدر الإمكان، في المنزل.

ثم أضاف مبتسماً في وجه روزي الساخط:

- ليس عليك أن تقلقي من هذه الناحية، يا حبيبتي. سأقوم بكل الترتيبات مع الفنيين بخصوص الفاكس والكومبيوتر وغير ذلك. آه... هذه أنت يا سيدة فرينتون؟ أنا وروزي قادمان من رحلة متعبة. هلاَّ أحضرتِ لنا غداء خفيفاً إلى غرفة الجلوس الشتوية! لن أدعوك للغداء معنا، يا إدوارد، لأنني أعلم كم أنت مشغول... آسف لحظك السيء! أعني بالنسبة إلى تصدُّع بيتك.

أضاف غارد ذلك بينما أخذ إدوارد ينظر إليه بحذر.

كان ضغط أصابع غارد المؤلم تقريباً على ذراع روزي هو الذي منعها من أن تنفجر غاضبة قبل أن يصلا إلى الصالة الشتوية الصغيرة المبطنة جدرانها بالخشب. ولكن عندما أصبحا هناك، وانغلق الباب خلفهما بأمان، نفضت نفسها بعيداً عنه وسألته بغضب والدموع تنفر من عينيها:

- لماذا لم تطلب من إدوارد مغادرة البيت؟ لماذا تركته يظن أن لابأس في بقائه هنا؟ إنك تعلم أنه لن يستطيع البقاء. لا أريده هنا! لا أصدق أنه لا يملك مكاناً آخر يذهب إليه. إنه يفعل هذا فقط لأجل... لأجل...

قال غارد متجهما:

- استمري. لأجل ماذا؟

اندفعت تقول غاضبة:

- لأنه يريد أن يتجسس علينا. لأنه...

قال غارد عابساً:

- لأنه يرتاب فينا!

حوّلت عينيها إلى ناحية أخرى. لقد بدأت تدرك معنى وجود إدوارد في هذا البيت والغرض منه. ظنت في البداية أنه انتقل إلى هنا ليغيظهما فقط. لكن غارد جعلها تعلم أن إدوارد ذو غرض أشد لؤماً وخطورة. وهذه الخطورة جعلت الدم يهرب من وجهها مخلفاً شحوباً بالغاً وتوتراً.

- تقول إنه يرتاب في أننا لسنا... أن زواجنا... ولكنها مجرد تكهنات منه.

قالت ذلك وهي تذرع أرض الغرفة متوترة الأعصاب، ثم اقتربت من غارد تنظر إليه متوسلة كأنها تطلب الموافقة على كلامها.

www.elromancia.com

أجاب مسلماً بقولها:

- في هذه المرحلة، نعم. إنما لا تقللي من شأنه يا روزي. إنه رجل خطر للغاية.

- إذا كنت تظن ذلك حقاً، لماذا إذن تركته يبقى ههنا؟ كان عليك أن تطلب منه المغادرة.

- وأجازف بتقوية شكوكه؟ لا... لا أستطيع القيام بذلك. كنت أنذرتك أن شيئاً كهذا ربما يحدث، وذلك منذ البداية.

- لا، أنت لم تخبرني. إنك لم تقل شيئاً عن انتقال إدوارد للسكن معنا، أو...

- ليس بالضبط. لكنني أشرت لك إلى المجازفة التي نحن مقدمان عليها. وكذلك حذرتك من أنني لن أسمح أبداً بتعريض سمعتي، الشخصية والعملية، للخطر بهذا الزواج. لا تخدعي نفسك، يا روزي، لن يكون المنزل وحده ما سنواجه خسارته لو أن إدوارد استطاع رفع دعوى ضدنا... الناس يواجهون أحكاماً بالسجن لأمور أقل من هذه.

وسكت وهو يهز رأسه. شحب وجه روزي ذهولاً، وهمست:

- السجن!.. لا!.. لا!.. إنك تحاول إخافتي فقط.

توترت روزي وقطب غارد جبينه عندما سمعا طرقاً على الباب.

دخلت السيدة فرينتون حاملة صينية واسعة، فهدأت روزي قليلاً.. لكن توترها سرعان ما عاد إليها عندما نظرت مديرة المنزل إليهما بقلق، ثم انفجرت تقول:

- لا أريد أن أقول شيئاً ليس من شأني، لكنني اشتغلت عند جدك مدة طويلة... وقد بدأ السيد إدوارد يلقي عليّ كثيراً من الأسئلة.

سألها غارد بهدوء:

- أي نوع من الأسئلة، يا سيدة فرينتون؟

أخذت روزي تتسائل: كيف يستطيع الاحتفاظ بهدوئه في مثل هذه الحال؟ ألم يخبرها لتوّه أن الوضع دقيق وخطر؟!... السجن!.. هذا مستحيل!...

- حسناً، أراد أن يعلم أي غرفة ستستعملانها أنت وروزي. مثلاً، قال إنه لا يريد أن يزعج أي شخص بأخذ الغرفة التي يريد. وقال إنه لاحظ أن أشياء الآنسة روزي ما زالت في غرفتها...

شهقت روزي ثائرة. كيف تجرأ إدوارد على دخول غرفتها؟ لو كان جدها ما زال حياً، لما سمح مطلقاً...

لو كان جدها ما زال حياً لما حدث أي من هذه الأمور، ولما كانت احتاجت إلى الزواج من غارد. لما شعرت بحاجة إلى الكذب والخداع. شعرت بالدموع الحارة تتجمع في مآقيها.

- قلت له إنني لا أعرف أية غرفة ستستعملان، لكنه ظل يلّح عليّ بالأسئلة. سألني عن الغرفة التي بتُّما فيها بعد الزفاف...

واحمر وجه السيدة فرينتون خجلاً وهي تنظر إليهما.

قال غارد يطمئنها بسرعة:

- لابأس، يا سيدة فرينتون. كنا، في الحقيقة، سنتباحث معك في أمر غرفة النوم، لأنني واثق من حسن تفهمك. هناك غرف معيّنة لا تريد روزي استعمالها، وذلك لأسباب عاطفية. غرفة أبيها، مثلاً، وكذلك غرفة جدها. وقد سبق وأخبرتها بأنني لا أستطيع مشاركتها غرفتها الحالية.

قال غارد ذلك بلطف، جاعلاً روزي تنظر إليه ساخطة. ذلك أنهما لم يتحدثا في مثل هذه الأشياء. وإذا كان يظن أنه يتظارف.. فمن الواضح أن مديرة المنزلة تعلم أن ليس بإمكانهما استعمال تلك

www.elromancia.com

الغرفة، خصوصاً أن ليس فيها سوى سرير فردي.

ـ كنا فكرنا في القيام بجولة في أنحاء البيت لنختار غرفتنا رغم أنني أعتقد أن أية غرفة نختارها ستكون مؤقتة، إذ أن أغلب الغرف ينبغي تحديثها. أنا شخصياً أفضل الحمامات الواسعة، وذلك لأسباب مختلفة.

أضاف غارد ذلك بمكر ناظراً إلى روزي، ما جعلهما، هي ومديرة المنزل، تحمران خجلاً. وتابع يقول:

ـ لكن روزي تصرّ على شيء أحدث طرازاً، وأعترف أنني سأفتقد الدوش القوي الذي في شقتي...

انتظرت روزي حتى خرجت مديرة المنزل، ثم هزت رأسها غاضبة عندما سألها غارد عما إذا كانت تريد أن تأكل شيئاً، متسائلة كيف يمكنه أن يأكل الفطائر بمثل هذا الهدوء وكأن شيئاً لم يحدث.

انفجرت تقول:

ـ إنك تعلم أننا سبق وقررنا أي غرف سنستعمل...

قاطعها قائلاً وهو يضع صحنه جانباً ثم ينتصب واقفاً:

ـ هذا في الماضي. أما الآن، فقد تغيرت الأمور يا روزي، ولهذا عليك أن تنامي في غرفتي طوال مدة وجود إدوارد وأسرته ههنا.

ـ في غرفتك؟ وأين ستنام أنت؟

كانت قد تكهّنت بالجواب مسبقاً، والنظرة التي رمقها بها أكدّت أسوأ شكوكها. قالت بسرعة:

ـ آه، كلا. لا، لا.. ليس ذاك! لن أشاركك غرفتك.. يا غارد، وأنام في نفس... لا، لا أستطيع!

قال متجهماً:

ـ ليس لدينا خيار آخر. إما أن تشاركيني الغرفة والفراش، يا

روزي، وإما أن تشاركي شخصاً آخر في أحد سجون المملكة المتحدة.

قالت مستنكرة:

ـ لا، لا! إنك تحاول إخافتي فقط.

ـ ماذا؟ أتظنينني حقاً متلهفاً إلى أي امرأة فألجأ إلى إخافتك كي تنامي معي! اكبري، يا روزي! ليس هذا الأمر ما يقلقني حالياً، وإنما جريمة الإحتيال.

قال غارد ذلك ساخراً، بينما أخذت تعض شفتها قلقة. ثم سألته بهدوء:

ـ هل تعني هذا حقاً؟ هل تظن حقاً أن إدوارد يرتاب في أمرنا.

صدرت عنها رجفة خفيفة وبدا الخوف في عينيها، وهي تتابع:

ـ إننا لن نذهب حقاً إلى السجن، يا غارد، أليس كذلك؟ أعني، ليس الأمر وكأننا...

ـ وكأننا ماذا؟ وكأننا ارتكبنا ذنباً في تآمرنا معاً لحرمان إدوارد من إرثه؟ أشك في أن المحكمة ستتساهل في أمر كهذا. هذا طبعاً إذا اخترت أن تتجاهلي نصيحتي وتجازفي...

ـ لا!

سارعت روزي تنفي ذلك. كانت قد بدأت حقاً تشعر بالخوف. قال:

ـ إنني لست أسعد منك بهذا الوضع. وافقت أن أتزوجك، يا روزي، لا لأنام معك. وصدقيني إذا كان هناك طريقة أحمل بها إدوارد على مغادرة البيت دون أن أزيد من شكوكه، لما تأخرت باستعمالها.

لم يكن غارد يريد أن ينام معها، أن يشاركها سريره! قطبت روزي حاجبيها مشكّكة في كلامه.

www.elromancia.com

وهذه المشاعر الضبابية الغريبة التي تملكتها، هل هي خيبة أمل وجرح في الكرامة لهذا الرفض؟ لا، بكل تأكيد!

* * *

- وهكذا.. يبدو أن هذه الغرفة هي الأكثر ملاءمة. إلا إذا كنت تفضلين واحدة من الأخريات!

هزت روزي رأسها بصمت. لقد أمضيا لتوّهما ساعة كاملة يتفحصان الغرف!

كانت روزي توقفت لحظة قصيرة أمام الغرفتين المتصلتين اللتين سبق وتحدثت عنهما، لكن غارد أمسك بذراعها يجرها بعيداً، وهو يتمتم متجهماً:

- اعتبري نفسك محظوظة لتمكّني من دفع إدوارد بعيداً عن طابقنا، وإلا كنا رأينا في الغرفة التالية متلصصاً علينا، مسجلاً بلهفة كل صوت...

عندما رأى تغير ملامحها، عبس ساخراً:

- أتجدين هذا كلاماً منفراً؟ حسناً، صدقيني أنه لا شيء يذكر بالنسبة لما قد تسمعينه في المحكمة...

كانا الآن يقفان في غرفة واسعة في الطرف المقابل من البيت، من الغرف التي كانوا، هي وأبوها وجدها، يحتلونها. وقفت روزي صامتة تتأمل السرير الضخم ذا الأربعة أعمدة.

هذه الغرفة، بسريرها الواسع المريح، وخشبها الدافىء الذي يبطّن الجدران، ومدفأتها، حتى الأريكة العميقة تحت النافذة... هذه الغرفة ربما كانت في وقت ما ملجأ لامرأة أخرى تشعر فيه بالراحة والسلام، وربما بمتعة الحب... لكنها، هي روزي، لا

يمكنها أن تراها بهذا الشكل. عضت شفتها بعنف، محاولة صدّ ما تشعر به من كرب.

أدركت، لأول مرة في حياتها تقريباً، أنها تشعر بالخوف! ليس من غارد، مهما كان مبلغ تهرّبها من مشاركته الغرفة.. والسرير.. لا، ما كانت تخافه هو الخطر الذي كشف لها عنه. سألته بصوت خافت وقد جفت شفتاها:

- نحن لا يمكن... إننا لن نذهب حقاً إلى السجن، أليس كذلك؟

- ماذا تريدينني أن أقول لك، يا روزي؟ أن أكذب عليك بكلمات حلوة لأخفف عنك؟ إنك أنت التي تصرّين على أنك امرأة ولست طفلة!

- ولكن إذا اعتقد إدوارد أننا ننام مع بعضنا البعض، أننا متزوجان حقاً، أتظنه سيتوقف إذ ذاك عن الارتياب فينا؟

- من المؤكد عندئذ أن تصبح شكوكه واهية الأساس إنما لا تقللي من شأن إدوارد، يا روزي. إنه كاذب خداع. ومثل كل الكذابين الخداعين، يعرف تماماً كيف يميز هذه الخصال في الآخرين.

- لا أظن أحداً نام في هذه الغرفة منذ حفلة عيد ميلاد جدّي السبعين.

قالت روزي ذلك بصوت متوتر، متجاهلة كلام غارد، ثم تقدمت نحو أوسع نافذتي الغرفة.

كان المخمل الذي يغطي الأريكة قديماً باهت اللون كالستائر وغطاء السرير، لكنه ما زال سميكاً ناعماً ينطق بالترف ولا يماثله أي نسيج عصري. قالت:

www.elromancia.com

في شهر العسل...

أجاب غارد بهدوء:

- نعم. أعلم هذا!

كان في صوته نبرة لم تسمعها منه من قبل. بدا وكأنه يشعر نحوها بالعطف... بالشفقة...

- روزي، أنا أعلم أن هذا ليس أمراً سهلاً بالنسبة إليك...

تصلب جسم روزي وهي تلاحظ تقدمه نحوها من الخلف. تحولت عن النافذة مندفعة في الحديث:

- إننا بحاجة إلى ملاءات نظيفة و... مناشف. هنالك بعض الملاءات، كما أظن، كبيرة الحجم... إنها إرلندية وكانت جزءاً من جهاز جدتي. إنه سرير كبير الحجم جداً...

- نعم، سرير كبير الحجم جداً، أكثر اتساعاً مما نحتاجه وكذلك عليه وسادتان مستطيلتان.

- وسادتان مستطيلتان؟

- نعم، وسادتان مستطيلتان. إنك تضعينهما على طول السرير فتقسمانه إلى قسمين. في وقت ما، لم تكن أي رواية عاطفية تخلو من «وسادة خالية»... أو هذا ما سمعت عنه!

قال ذلك هازلاً.

قالت بابتسامة باهتة:

- لا يمكننا استعمالهما رغم وجودهما. ربما يراهما إدوارد!

تهدّج صوتها فجأة والدمع يفيض من عينيها ثم صرخت بتعاسة:

- لم أتصور قط أن الأمر سيكون بهذا الشكل. كل ما فكرت فيه هو حماية المنزل، هذا كل شيء!

- نعم، أعرف هذا. هيا ابكي ما شئت، هذا يخفف عنك.

قال غارد ذلك وهو يجتاز الغرفة ويأخذها بين ذراعيه بحنان غريب.

لم يكن لديها وقت للاحتجاج أو الرفض. كان رجلاً مختلفاً. أدركت ذلك وهي تستكين إلى صدره وذراعيه الدافئتين. أشعرها بمبلغ ما كانت تحس به من وحدة... لقد رحل أبوها وجدها ولم يعد لها أحباب تلجأ إليهم لتشكو أحزانها ومشاكلها.

هذه الأفكار جعلت دموعها تفيض بغزارة مبللة قميص غارد القطني الأبيض. قالت محتجة وهي تشهق مع الكلمات:

- لم أكن أقصد هذا.

- أعرف.

بدا صوت غارد حنوناً مغرياً في أذنيها، بنفس الحنان الذي تشعر به بين ذراعيه.

- أنا خائفة يا غارد. ماذا سنفعل؟

اعترافها الهامس هذا جعل ذراعيه تشتدان حولها قليلاً. لا بد أن غارد خائف هو أيضاً، كما أخذت روزي تفكر، وإلا لما ضخّم من خطورة موقفهما بهذا الشكل.

- حسناً، هناك طريقة واحدة يمكننا بها التخلص من إدوارد!

انتفضت روزي ورفعت رأسها عن كتفه تحدق فيه غير مصدقة:

- أتعني أن نخبره بالحقيقة؟ نعترف بأننا تعمدنا خداعه؟ لا... لا يمكننا القيام بذلك!

أحبطت عندما تركها غارد فجأة مبتعداً عنها بجفاء وفتور، ثم وقف مديراً لها ظهره وهو يقول بصوت خشن:

- الحق معك! لا يمكننا القيام بذلك! اسمعي، عليّ أن أذهب إلى المكتب الآن وسأحاول العودة بأسرع وقت ممكن. أما إدوارد،

www.elromancia.com

فسيكون مشغولاً بنقل أوراقه السرية، وسيكّف عن مطاردتك أثناء غيابي.

ماذا حدث للتناغم الذي كان بينهما منذ لحظات فقط؟ أين ذهب كل ذلك؟ ولكن، كان عليها أولاً أن تسأل نفسها من أين جاء ذلك، كما حدثت نفسها والتعب يتملكها، وعما إذا حدث ذلك فعلاً أم أنها كانت مجرد تخيلات... هكذا أخذت روزي تتساءل بقلق بعد خروج غارد.

لم يحدث بينهما تقارب عاطفي قط، من قبل... ومع ذلك، يمكنها أن تقسم أنها شعرت، حين أخذها غارد بين ذراعيه، بأنه يريد أن يواسيها من كل قلبه، أن يطمئنها، أن يتقرب منها..

غارد يريد أن يتقرب منها؟! ها هي ذي الآن تسمح لمخيلتها بأن تذهب بها بعيداً.

لا شك أنه، في الواقع، يلعن اليوم الذي وصلت به الحماقة إلى القبول بالزواج منها.

ـ كل ما أرجوه هو أن تقدّر ما نفعله لأجلك.

همست بذلك للمنزل وهي تلمس الجدار، عندما فتحت باب غرفة النوم.

ـ ما أجمل فرش السرير اللائق بالملاءات!

هتفت السيدة فرينتون بذلك راضية وهي تتراجع إلى الخلف لتبدي إعجابها بما أنجزته مع روزي.

السرير ذو الأعمدة الأربعة، وكذلك كل قطعة من الأثاث في الغرفة، بما في ذلك خشب الجدران، كل ذلك صُقل ولمّع، وغسلت النوافذ. صنابير المياه النحاسية في الحمام دُعكت حتى أصبحت كالذهب، وأخيراً، فُرش السرير بالملاءات والبطانيات والغطاء

التقليدي المطرز باليد.

نظراً لاتساع السرير، احتاج فرشه إليهما معاً. واستاءت روزي داخلياً عندما قالت مديرة المنزل إن الأسرّة العصرية تجعل الحياة أسهل:

ـ إنك تتعبين كثيراً في العثور على غطاء لسرير بهذا الحجم يكفي اتساعه لنوم الأسرة كلها. أليس كذلك يا روزي؟

أسرة!.. ومرت أمام عيني روزي سحابة صغيرة وهي تنظر إلى السرير.

تملكها شعور بالفراغ.. إحساس مؤلم بالوحدة البالغة، بعدم وجود شخص حميم يشاركها حياتها. إنه شعور لم تعرفه من قبل. شعور تملكها، لأول مرة، عصر هذا اليوم، بعد أن أبعد غارد من حولها ذراعيه. وتملكتها قشعريرة أقلقتها.

عندما كتب جدها وصيته، كان يريد أن يبقى البيت ضمن الأسرة. أن يعيش أحد فيه. أن يحبه أحفاده. ثم أخذت روزي تحدّث نفسها بثقة: غارد سيحبه ويعيش فيه! سيحمي المنزل! وفي النهاية، سيعيش فيه أولاده.

تملكها الذعر لعنف الشعور بالوحشة الذي اكتسحها، خصوصاً وهي لا تعلم تماماً سبب شعورها هذا.. هل هو التفكير في أن أولاد غارد لن ينشأوا في «مرج الملكة»، كما نشأت هي، أم التفكير في أن أولاد غارد هم الذين سينشأون فيه؟

ومع ذلك، لم يحدث قط أن شعرت نحو المنزل بنزعة التملك. لا نحو المنزل ولا نحو غارد، وإنما العكس.

القشعريرة البسيطة أصبحت رجفة عنيفة عندما أخذت الأفكار والتصورات تُلهب مخيلتها، فحاولت إخمادها بالحديث إلى مديرة

www.elromancia.com

المنزل، محدّثة نفسها بأن وجود إدوارد في البيت هو وحده مصدر قلقها وتعاستها.

* * *

٨ ـ غارد والحب

ـ حسناً، والآن أظنكما تريدان أن نترككما بمفردكما.

الابتسامة الوحيدة التي منحها إدوارد لروزي لم تزدها إلا اشمئزازاً.

ـ ليس عليك أن تبقي هنا، يا مرغريت!

أمر زوجته بذلك، بعد أن اختفى ظرفه المصطنع، وهو يشيح بوجهه عن روزي ويحدق في زوجته عبر مائدة العشاء، متابعاً:

ـ ما زال هناك أشياء كثيرة عليك أن ترتبيها. لا أدري كيف تبقين جالسة عديمة النفع بهذا الشكل!

استاءت روزي بغضب لأجل مرغريت، عندما احمر وجه المرأة الشاحب الهزيل ونهضت على الفور طائعة تلبي أوامر زوجها.

حاولت روزي مساعدتها بشكل آلي، دافعة كرسيها إلى الخلف وهي تقول لها بسرعة:

ـ لماذا لا تؤجلين ذلك إلى الغد، يا مرغريت؟ لن أذهب إلى العمل في الملجأ قبل العصر، وبذلك يمكنني مساعدتك، وأنا واثقة من أن السيدة فرينتون لن تمانع في مساعدتنا كذلك...

ـ الملجأ!.. (ارتفع حاجبا إدوارد وهو يقاطع روزي بغلاظة) يا إلهي!.. كنت أظن غارد وضع حداً لذهابك إلى هناك. بالنسبة إلى

www.elromancia.com

تلك الحثالة من الناس القاطنين في الملجأ، لا أدري ماذا بإمكانك...

قاطعته روزي غاضبة:

- إنهم ليسوا من حثالة الناس! ليس منهم من كان يريد أن يكون شريداً دون مأوى، يا إدوارد... ليس منهم من كان يريد أن يعتمد على الآخرين، على الدولة للحصول على صدقات و...

نفرت عندما أمسك غارد بيدها. أرادت أن تنتزع أصابعها من قبضته، لكنها لم تجرؤ تماماً على ذلك. عملها في الملجأ كان على الدوام موضوع جدال، خصوصاً مع جدها الذي كانت وجهة نظره تنزع إلى الطراز القديم. كذلك، اشتبهت روزي في أن غارد يشارك إدوارد رأيه، وسرعان ما سمعته في فكرها يقول بحزم وجهة نظره بأن ما كانوا يحاولون إنجازه من وراء هذا الملجأ ما هو إلا تبديد للوقت والمال.

- روزي على صواب تماماً، يا إدوارد! وهؤلاء الناس لا يستحقون عطفنا فقط وإنما مساعداتنا العملية كذلك. وبمعزل من موقفي الخاص، وحتى لو كنت أخالفها الرأي، فليس من حقي التدخل في عملها. هي زوجتي، ونحن متماثلان في الحقوق. إنني احترم حقها في تقرير ما تفعله وما لا تفعله. وعلى كل حال، إذا لم يكن هناك احترام وثقة متبادلين بين الزوجين، كيف يمكن أن يكون هناك حب؟

استدارت روزي تنظر إلى غارد ذاهلة! لم تتوقع منه قط أن يعبّر عن مثل هذه الآراء! أتراها بعيدة إلى هذا الحد عن غارد؟ غارد الذي كانت تظن نفسها تعرفه؟ غارد الذي طالما اعتبرته دوماً متغطرساً مستبداً!

بطرف عينها، رأت وجه مرغريت بملامحه الكئيبة التعسة. مسكينة مرغريت! كم هي مأساة أن تتزوج رجلاً مثل إدوارد! وكم تكون المأساة أكبر لو أنها أحبته ذات يوم!

هذه الحادثة الصغيرة استقرت في ذهنها، وعندما أصبحت هي وغارد بمفردهما أخيراً، استدارت نحوه تسأله بتشكيك:

- هل كنت تعني حقاً ما قلته؟ عن... عن اعتقادك بأن... بأن حبك لشخص يعني الاحترام له والثقة به؟

النظرة الفاحصة التي رمقها بها جعلتها تتمنى لو أنها لم تثر هذا الموضوع. سألها بجفاء:

- إنها المرة الأولى، أليس كذلك، التي تكتشفين فيها أن لديَّ أفكاراً ومشاعر بدلاً من...؟

- بدلاً من ماذا؟

هز رأسه ببساطة، ثم قال بهدوء:

- نعم! أنا أعتقد حقاً أن الاحترام والثقة يسيران مع الحب جنباً إلى جنب... الحب الحقيقي وليس ذلك الحب الشائع المبني على الشهوة. الذي يحب شخصاً ما، يعني أنه يحبه كما هو ولذاته، يريده أن يكون هو نفسه بدلاً من محاولة تغييره إلى الصورة المسبقة التي رسمها في خياله. هذا يعني أنه يحبه لما هو عليه وليس بالرغم ممّا هو عليه...

وإذ لاحظ عليها شيئاً من الاضطراب، قطب جبينه وسألها برقة:

- ما هذا؟ ماذا حدث؟

أجابت تلقائياً:

- لا شيء! لا شيء أبداً!

لم تجرؤ على النظر إليه مباشرة لاحتمال أن يرى المشاعر في

عينيها فيتكهن بتأثير كلماته عليها. هل يمكن أن يحبها شخص ما بهذا الشكل؟ بمثل هذا الصدق؟

أذهلها أن غارد هو، من بين جميع الناس، الذي وصف لها الحب كما تتصوره وتتمناه بالضبط. غارد الذي لو كانوا سألوها عنه، لما ترددت في القول إنه لا يستطيع فهم هذه المبادىء ولا المشاركة فيها.

سمعته يقول لها:

ـ يبدو عليك التعب. لماذا لا تذهبين إلى سريرك قبل أن يقرر إدوارد فرض صحبته علينا؟ ربما نال كفايته من إرهاب مرغريت!

لم تستطع مقاومة سؤال ألحَّ عليها، فقالت بهدوء:

ـ أتظنها أحبته يوماً ما؟

هز رأسه قائلاً بلهجة حاسمة:

ـ لا! أبداً! أما أنه الرجل الذي انخدعت بأنه يحبها، أظن نعم!.. ويا لتعاسة تلك المرأة!..

ـ لا أدري لماذا تبقى معه وهو يعاملها بهذا الشكل الرهيب.

ـ لعله دمّر احترامها وتقديرها لنفسها إلى درجة لم تعد تستطيع معها الرحيل. ثم هنالك طبعاً ولداها.

ـ إنه شخص رهيب يتلذذ بإرهابها وتعذيبها...

قال غارد محذراً:

ـ نعم! وهذا لا شيء بالمقارنة بما قد يريده لنا إذا ما اكتشف الحقيقة عن زواجنا.

ارتجفت روزي قليلاً، وهي تقول متوسلة والخوف في عينيها:

ـ لا تقل شيئاً، يا غارد!

قال يطمئنها:

ـ لابأس! ليس ثمة سبب يجعله يكتشف الحقيقة ما دمنا، نحن الاثنين، حذرين...

همست قائلة:

ـ لم يخطر لي قط أنه سيفعل شيئاً كهذا، ينتقل إلى هنا...

ـ كفى قلقاً لهذا الأمر! ولا تنسي أن عليك الظهور بمظهر عروس في غاية السعادة!

منحته روزي ابتسامة شاحبة:

ـ هذا صحيح! وأياً ما كان الأمر، لا سيما إذا كنا نحب بعضنا بعضاً، فإن وجود إدوارد أو أي شخص آخر هنا، هو شيء غير مرغوب به.

قال موافقاً:

ـ غير مرغوب به على الإطلاق.

شيء ما في نظرته ونبرة صوته، جعل قلبها يخفق ووجهها يحمر قليلاً. قالت بصوت أبحّ:

ـ الحق معك! يجب أن أذهب إلى فراشي. إنني متعبة...

ـ أما أنا فسأتأخر ساعة أو نحوها. عليَّ أن أنجز بعض الأمور.

ـ هذا حسن! تصبح على خير إذن.

تمتمت روزي ذلك بلهجة غريبة، متجنبة النظر إليه عندما فتح لها الباب.

كانت في منتصف الممر عندما سمعت إدوارد يناديها. انقبضت على الفور وأخذت نفساً عميقاً قبل أن تلتفت.

سألها إدوارد ساخراً عندما وصل إليها:

ـ أذاهبة أنت للنوم في هذا الوقت المبكر؟

استطاعت روزي، بشكل ما، أن تمنع نفسها من الرد عليه

www.elromancia.com

بالطريقة التي ترغب بها وقالت بهدوء:

ـ كانت مرغريت تبدو متعبة جداً أثناء العشاء، يا إدوارد! لا بد أن الأمر كان مرهقاً جداً لها، أعني الانتقال إلى هنا بتلك السرعة.

ـ لا عليك، إنها تحب تضخيم الأمور. هذا هو طبعها. أين غارد؟

ـ لديه بعض الأمور الخاصة.

نظرة إدوارد إليها أشعرتها بمزيج من الغضب وعدم الارتياح. قال ساخراً بشكل مهين:

ـ إنه لم يسأمك، أليس كذلك؟ عليك أن تراقبيه، يا روزي! إن رجلاً بمثل سمعته...

قالت غاضبة:

ـ لقد اختارني غارد زوجة له؛ وإذا كانت لديه علاقات ماضية فهي بالضبط من الماضي... يا إدوارد.

شعرت بالزهو لجوابها هذا الذي بدا أنه هز إدوارد حتماً. ثم قالت له بلهجة ازدراء واستنكار:

ـ ما الذي تفعله هنا في هذا الطابق؟

ـ كنت في طريقي لأحضر أشياء وضعتها في الكاراج. يجب أن أدخل أمتعتنا بسرعة، وهذا سيستغرق ساعتين على الأقل. أتعلمين، يا روزي، كان عليك التفكير ملياً قبل الاندفاع إلى الزواج من غارد؟ إنها مجازفة كبرى منك!.

شعرت روزي بخفقات قلبها تتسارع، فقالت متحدية، راجية ألا يرى في عينيها إحساساً بالذنب:

ـ ماذا... ماذا تعني؟

ماذا ستفعل أو تقول لو أخبرها بأنه يعرف سبب زواجها من

غارد؟. لماذا تركته يحاصرها بهذا الشكل في غياب غارد؟ لماذا جاءت...؟

قال إدوارد بلطف:

ـ إنك تعلمين ماذا أعني. نعم، يمكنني أن أفهم سبب وقوعك في غرامه. من المؤكد أن غارد يعرف كيف يعامل النساء. طبعاً لكثرة تجاربه... ولكن هل سألت نفسك يا روزي لماذا تزوجك؟

أجابت على الفور:

ـ لأنه يحبني.

للحظة واحدة فقط، ظنت أن إدوارد تكهن بالحقيقة. وحتى لو لم يحدث ذلك، فمن الواضح أنه يشتبه في شيء ما. سلّمت روزي بهذه الفرضية وهي تستدير على عقبيها وتتركه.

بهذا النور الخافت بدت غرفة النوم الفسيحة مريحة حميمة بشكل مدهش. لعل السبب هو السرير!

بدا السرير وكأنه...

حوّلت نظراتها عنه بسرعة. حسناً، لا يبدو على هذا السرير أنه صُمم لينام عليه شخص عازب وحيداً، وإنما العكس تماماً...

خرجت روزي من الحمام متباطئة، وتناولت منشفة لفتها حول جسدها. لقد أمضت وقتاً طويلاً وهي مستلقية في الحوض، متنعّمة بتلك الرفاهية البالغة، والمياه الدافئة المعطرة التي جعلتها تشعر بالنعاس.

سارت مبتسمة إلى غرفة النوم، وإذا بها تقف فجأة وقد اختفت ابتسامتها. تذكرت أن قميص نومها، فضلاً عن بقية ثيابها وملابسها الداخلية ما زالت في غرفتها السابقة.

أثناء انشغالها بتجهيز هذه الغرفة، وقلقها من انقضاض إدوارد

المفاجيء عليهما، نسيت تماماً نقل أمتعتها.

نظرت إلى باب الغرفة بحيرة وهي تعض شفتها. هل يمكنها المجازفة بالركض في الممر وهي على هذه الحال لإحضار ملابسها، أم عليها أن تعود وترتدي ثيابها السابقة خوفاً من أن يراها إدوارد؟

كانت ما تزال واقفة تقلب الأمر في ذهنها، عندما انفتح الباب ودخل غارد.

حدقت فيه روزي، وهي تتأكد من التفاف المنشفة حولها بإحكام.

ـ أظنك قلت إنك ستمضي ساعتين في العمل!

ـ هذا صحيح! لكن إدوارد كان هناك بتعليقاته الساخرة حول العرسان والعرائس المهجورات...

ـ هل ما زال هناك؟

ـ نعم. يبدو أن لديه بعض الأمتعة التي يريد نقلها إلى الطابق العلويّ هذه الليلة. لماذا؟

عبست روزي بضيق قائلة:

ـ نسيت نقل حاجياتي من غرفتي القديمة.

هز غارد كتفيه بعدم اهتمام:

ـ يمكنك نقلها عند الصباح. إذا قال لك شيئاً قولي له إنك لم تجدي وقتاً لنقلها قبل الزفاف.

قالت مستنكرة:

ـ لا، إنك لم تفهم قصدي، ليس... ليس لدي شيء.. لا شيء مطلقاً! ملابسي الداخلية، قميص نومي، كل ذلك ما زال في غرفتي القديمة! وكذلك الحقيبة التي أحضرتها من بروكسل.

قالت ذلك بانفعال، ثم هدأت قليلاً أمام نظرة غارد الباردة

وتابعت مدافعة عن نفسها:

ـ نسيت كل شيء عندما فوجئت بحضور إدوارد، ثم انشغلت بعد ذلك بإعداد هذه الغرفة. عليّ أن أذهب وأحضرها.

فقال غارد بحدة:

ـ لا!

قالت بذعر:

ـ لكن عليّ أن أحضر قميص نومي! ليس لديّ ما أنام به! أنت لديك كل أشيائك!

ذلك أنها سبق وأفرغت، مع السيدة فرينتون، الحقيبة التي أحضرها غارد من شقته وفيها بعض الملابس. آنذاك، قال لهما ساخراً إنه لم يتوقع منهما القيام بذلك. قال لها الآن:

ـ العروس، يا روزي، لا تترك غرفة عريسها لتذهب وتحضر قميص نوم! ثم إن هذا العمل لا حكمة فيه بالنسبة إلى وضعنا الحالي، خصوصاً وأن إدوارد ما زال يجول في أنحاء البيت. أظن أن عليك، لهذه الليلة على الأقل، أن تنامي. كما أنت...

أخذت روزي تحدق فيه، ثم قالت بصوت مختنق:

ـ لا! لا أستطيع...

ـ تستطيعين طبعاً! فأنا أفعل هذا على الدوام.

أخذت تنقل نظراتها بذعر بينه وبين السرير الضخم.

ـ لن أنام إلى جانبك في هذا السرير إلا إذا كان أحدنا... بل نحن الاثنين، مرتديين ثياباً!

سألها بهدوء:

ـ وما المانع؟

أخذت تحدق فيه باضطراب. ما الذي يعنيه بقوله (ما المانع)؟

www.elromancia.com

أليس الأمر واضحاً؟ قالت باستنكار:

ـ لأن هذا غير مناسب!

رفع غارد حاجبيه:

ـ أحقاً؟ يخيّل إليّ أن لديك فكرة غريبة جداً عن الزواج، يا روزي! أؤكد لك أن هذا هو المناسب بالضبط.

سكت وأخذ ينظر إليها فيما الخجل يلهب جسدها من الرأس حتى القدمين. ثم قال ممازحاً:

ـ ما هذا، يا روزي؟ أتخافين من أن تفقدي السيطرة على نفسك وأنت معي؟!

كانت تعلم أنه يمزح وبدلاً من الشعور بالارتياح لمحاولته تلطيف الجوّ، شعرت بشيء من الانقباض.

ابتلعت ريقها بصعوبة وأزعجتها مشاعر لا تجرؤ على تسميتها.

لم تعرف ماذا تقول، وبدلاً من ذلك تناولت وسادة وقذفت بها غارد بغضب.

تلقى الوسادة بيديه وهو يضحك منها استخفافاً، ويقول:

ـ حسناً! إذا كنت تصرّين على التصرف كطفلة، يا روزي...

وتحرك بسرعة لم تترك لها مجالاً للهرب وهو يرفعها عن الأرض مبعداً إياها عنه قليلاً، ضاحكاً منها وهي ترفس بقدميها احتجاجاً، طالبة منه أن يتركها.

استجاب لطلبها ضاحكاً. وعندما ترك خصرها ومست أصابع قدميها الأرض، شعرت بالمنشفة تنزلق عن جسدها.

عندما أخذت تكافح بذعر لالتقاطها، سمعت غارد يقول بهدوء:

ـ ربما أنت على حق يا روزي! لعل النوم جنباً إلى جنب ليس بالفكرة الجيدة. ولكن مع الأسف، ليس لدينا خيار آخر. ليس لأي

منا خيار آخر، ولهذا ليس أمامنا سوى القبول بالواقع. وهذا السرير اللعين كبير بما يكفي لأن ينفرد كل منا بنفسه.

لا عجب من غضب غارد منها بهذا الشكل، كما أخذت روزي تفكر وهو يدخل الحمام، تاركاً إياها تتكور تحت الأغطية. لو أنها لم تكن غبية بذلك الشكل فتنسى نقل ملابسها...

اختنقت بالدموع وبردت قدماها. لماذا هي بلهاء عديمة الحنكة، ما جعلها تحدث كل تلك الضجة لأجل قميص نومها؟ كان واضحاً من الطريقة التي تصرف بها غارد أنه لا يريد إرغامها على شيء.

ولكن، أليس هذا ما ينبغي أن يكون، وما تريده هي؟ أخذت تحدث نفسها بذلك وهي تبتعد إلى حافة السرير البارد ثم تغمض عينيها محاولة تجاهل الأصوات القادمة من الحمام.

يبدو أن غارد، بعكسها، اختار الدوش. ارتجفت من تصوراتها المعذّبة.

لكنها لم تكن تريده.. إنها لا تريده طبعاً... حتى إنه لا يعجبها...

وتناولت واحدة من الوسائد الزائدة تضعها فوق أذنيها، مانعة الأصوات التي تعذبها، القادمة من الحمام...

* * *

www.elromancia.com

٩ ـ آخر اللعبة... الندم!

استيقظت روزي فزعة. كان هناك شخص يقرع باب الغرفة. ثم صوت إدوارد يناديها وينادي غارد.

شعرت بالتوتر عندما أدركت أن سبب شعورها اللذيذ بالدفء وكراهيتها الاستيقاظ هو أنها كانت، أثناء نومها، قد انتقلت من مكانها في طرف السرير لتصبح الآن مستلقية ببراءة في وسطه بجانب غارد.

ـ لا بأس يا روزي. إبقي هنا بينما أذهب أنا لأعرف ما يريد.

قال غارد ذلك وهو يجلس، ثم أضاء المصباح الذي بجانب السرير، ونزل إلى الأرض. رأته من طرف عينها يتناول معطفه المنزلي ويضعه على جسده، فتنهدت بارتياح.

سمعت غارد يسأل متجهماً، وهو يفتح الباب سادّاً إياه بجسمه لئلا يدخل إدوارد:

ـ نعم يا إدوارد، ماذا هناك؟.

ـ إنها مرغريت. هل روزي...؟

ـ ماذا حدث، يا إدوارد؟ ما بها مرغريت؟

ـ إنها... لديها صداع.. وكنت أتساءل عما إذا كان لدى روزي أسبرين أو ما أشبه. لم نجد عندنا شيئاً من ذلك.

رفع غارد حاجبيه غاضباً:

ـ صداع؟ أتوقظنا الساعة الثانية صباحاً لأن زوجتك لديها صداع؟!

أجاب إدوارد مدافعاً:

ـ حسناً، إنه صداع شديد من نوع الشقيقة!.

ـ إذا كان لدى مرغريت مرض الشقيقة، لا أظن مجرد الأسبرين سيفيدها.

حاولت روزي أن تجلس قليلاً، ساترة نفسها بالملاءة، وهي تقول من الداخل:

ـ آسفة، يا إدوارد! ليس لدي شيء هنا. يمكنك أن تجد شيئاً من ذلك في خزانة الأدوية في المطبخ. مسكينة مرغريت! لا بد أنها تتألم كثيراً.

ـ حسناً! سأنزل لأحضر لها شيئاً. آسف للإزعاج!...

لم يكن في صوته ما يدل على الأسف. هكذا لاحظت روزي بضيق، بينما غارد يردّ الباب.

عادت روزي تعبر عن أسفها مجدداً:

ـ مسكينة مرغريت.

ـ نعم، مسكينة مرغريت لو كان لديها مرض الشقيقة حقاً! أنا شخصياً أشك في ذلك، وفي الواقع...

سألته روزي بقلق:

ـ ماذا تعني؟ تريد أن تقول إن إدوارد أيقظنا متعمداً لكي يرى...؟

فقال غارد متجهماً:

ـ أننا نائمان معاً حقاً. إنه احتمال قويّ!

www.elromancia.com

العنف الذي بدا على وجه غارد جعل قلب روزي يخفق قلقاً. حولت وجهها عنه وهي تعض على شفتها.

وعندما عاد إلى السرير وأطفأ النور، انخفض السرير قليلاً تحت وزنه. همست روزي بصوت خافت:

ـ غارد، إلى أيّ حد تظن إدوارد يشك فينا؟ أعني لا بد أنه تكهن بشيء جعله يأتي إلى هنا، أليس كذلك؟

ـ هذا ما يبدو.

قال غارد ذلك بعد لحظة صمت، وعندما تأوهت روزي بكرب أضاف يقول:

ـ ولكن لا فائدة من إلى التوصل بسرعة إلى الاستنتاجات، أو القلق. وفي الواقع، لم ير شيئاً هنا الليلة يثبت ظنونه... بل على العكس...

أدركت روزي أن غارد يقول الحقيقة، لكنها ما زالت تشعر بالتوتر والانزعاج.

ـ ذهب إدوارد الآن، عودي إلى النوم!

قالت وهي ترتجف:

ـ لا أستطيع. أنا خائفة يا غارد. ماذا لو عرف إدوارد و...

سمعت حفيف ملاءات السرير عندما استدار غارد إلى المصباح يضيئه، ثم يقول لها بهدوء وهو ينظر إليها:

ـ لا شيء هناك لتخافي منه... ما هذا يا روزي؟ هل تبكين حقاً؟!

قال ذلك برقة بالغة.

هزت رأسها بسرعة، لكنها أدركت أنه لا بد رأى الشك يلمع في عينيها. قالت بصوت مختنق:

ـ قلت لي إننا سنذهب إلى السجن.

أجاب مصححاً:

ـ بل قلت إننا ربما نذهب.

رأت صدره يتسع وهو يجذب نفساً عميقاً. شعرت بقشعريرة غريبة تسري في جسمها، لكنها اندفعت في الكلام تخمدها، فقالت بصوت أجش:

ـ لم أكن أتصور أنني سأخاف من شخص مثل إدوارد.

ـ وأنا لم أكن أتصور أن يوماً سيأتي تعترفين لي بأنك خائفة من أي شيء! لا بأس، يا روزي. أعدك بأن كل شيء سيصبح على ما يرام. تعالي...

عندما مدّ يديه يأخذها بين ذراعيه، منعتها الدهشة من الكلام. منذ زمن بعيد لم يحتضنها أحدٌ مواسياً ومخففاً عنها. أخذت تتساءل بينما كان غارد يرد شعرها عن وجهها. همست تقول:

ـ ما زلت لا أستطيع التصديق أن إدوارد يفعل شيئاً كهذا. أن يأتي إلى هنا في منتصف الليل لكي يتأكد...

قال مواسياً:

ـ كفى حديثاً عن ذلك. لقد ذهب الآن.

ـ نعم، أعرف (ورفعت رأسها عن كتفه لتنظر في عينيه) ولكن، لو لم يجدنا معاً يا غارد... لو أنك كنت نائماً على كرسي، أو لو كنت أنا...

قاطعها بجفاء:

ـ مرتدية قميص نومك! سبق وقلت لك، يا روزي، إنسي هذا!

ارتجفت فجأة ودفنت وجهها في كتفه، قائلة:

ـ لا أستطيع! لا أستطيع!

www.elromancia.com

- روزي!

لم تستجب لضغط يده على كتفها يبعدها عنه. لم تشأ أن تبتعد عنه، لم تشأ أن تعود إلى ناحيتها الباردة الموحشة من السرير. لم تشأ...

سمعته يحذرها برقة:

- روزي... إنك تعلمين ما سيحدث إذا لم تتركيني، أليس كذلك؟

تتركه؟ اتسعت عيناها ذهولاً عندما أدركت ما يعنيه. إنها تريد أن تبقى بجانبه كما هي الآن، بالضبط على مقربة منه.

- غارد...

أتراه سمع الاضطراب في صوتها؟

اتسعت عيناها وهو يحيط وجهها بيديه، وعيناه أشد ظلاماً وتألقاً...

عضت روزي باطن شفتها بأسنانها متوترة.

- لا تفعلي هذا!

سمعت غارد يتمتم بذلك، قبل أن ينحني ليعانقها. لم يسبق أن عرفت روزي أحاسيس عميقة كهذه التي تشعر بها وهو يحتضنها. كان تأثيرها أشبه بالصدمة.

ابتعد غارد عنها قليلاً وقال بصوت اختلطت فيه الرقة بالشك.

- هل تريدينني يا روزي؟

- نعم.

- قوليها مرة أخرى.

قالت وهي تتشبث به.

- نعم! نعم! نعم!

- أتعلمين كم حلمت بأن أراك، جميلة ورقيقة...؟ أنت حقاً امرأة مكتملة...

كان وقع كلماته على قلبها كنار أذابته أكثر فأكثر.

عاد يردد:

- يا لك من ساحرة يا روزي! لو لم أكن أعرفك لاعتقدت...

خنقت المشاعر صوت غارد فلم يكمل جملته. جرفهما الشوق الدفين كل باتجاه الآخر. ولم يعد للتردد مكان في هذه اللحظة.

أدركت أنها أحبت غارد وأنه يحبها أيضاً. روعة تلك المشاعر أثارت الخوف في نفسها. حبها لغارد كان شيئاً جديداً طرأ عليها. اكتسحها الذعر مجدداً فأشاحت بوجهها عنه، شاعرة بالتوتر الذي تملكه وجعله يبتعد عنها قليلاً لينظر إليها.

- روزي! ما الذي...

دفعها التوتر إلى الاندفاع في الكلام، غير واثقة من أنها تريد أن تسمع ما قد يقوله:

- حسناً، على الأقل لن يتمكن إدوارد الآن من الادعاء بأن زواجنا غير صحيح.

تصلّب جسد غارد ثم قال باختصار وهو يبتعد عنها كلياً:

- هل هذا سبب كل ما حدث بيننا؟!

أخذ يشتم بصوت خافت، ثم تابع يقول:

- يا إلهي!... بينما أنا ظننت في الواقع...

- غارد!

هتفت باسمه مترددة، لكنه لم يكن يستمع إليها... حتى إنه لم ينظر إليها... وتملكتها التعاسة وهو يبتعد عنها إلى الناحية الخالية من السرير ثم يطفىء المصباح. قال متجهماً وهو يوليها ظهره:

www.elromancia.com

ـ نامي يا روزي! فقط نامي...

تكورت روزي بشكل كرة صغيرة حزينة. تملكها الألم واختنقت بالدموع فلم تستطع أن تفسر له موقفها ومبلغ الصعوبة التي وجدتها لتتعود على حقيقة مشاعرها نحوه...

لعله لم يشعر نحوها بنفس ما شعرت هي نحوه! لعلها أخطأت في التعبير! ولكنه يعلم تماماً رأيها في الزواج وأنه لا يمكنها التمادي مع أي رجل... دون حب!

وعندما ابتدأت الدموع تنهمر على وجنتيها، عضت شفتها بشدة لتمنع نفسها من إصدار أي صوت ينمّ على ذلك.

* * *

فتحت روزي عينيها بحذر، لكن الأمر كان على ما يرام، كانت وحدها في الفراش، ويبدو أنها وحدها في الغرفة أيضاً.

جلست ببطء، تلف حولها ملاءات السرير.

تحوّل الحذر إلى شوق كئيب وهي تنظر إلى مكان غارد الخالي بجانبها.

كانت حمقاء الليلة الماضية عندما تركت غارد يبتعد عنها دون أن تخبره بشعورها نحوه. أما اليوم، فسيكون الأمر مختلفاً. حدثت نفسها بذلك متفائلة. ولكن، أين ذهب غارد؟

أبعدت عنها أغطية السرير، ثم قطبت جبينها حين تذكرت أن ليس لديها ملابس نظيفة. عليها أن ترتدي ملابس أمس ثم تذهب إلى غرفتها القديمة. ازداد تقطيبها عندما وقعت عيناها على كومة من الملابس الداخلية البيضاء على كرسي، هي ملابسها.

هنالك شخص ما، هو غارد بالتأكيد، توقع ما هي بحاجة إليه.

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها.

كان غارد على صواب تماماً! استقرت على هذا الرأي وهي تخرج من الحمام بعد أن اغتسلت وارتدت ثيابها. لم تكن قمصان نومها، وهي فتاة، تصلح حقاً لامرأة متزوجة! ثم إنها ليست ضرورية تماماً.

حاولت روزي، أن تبعد عن ذهنها هذه الأفكار غير اللائقة. لكنها حين نظرت في المرآة، أدركت أن توهج وجهها وتألق عينيها يفضحانها. وحين يراها غارد، سيتذكر على الفور الليلة الماضية.

فتحت باب غرفة النوم ورأسها يدور، ثم أسرعت تهبط السلم. لم تتصور قط أن حبها لشخص ما سيثير مشاعرها إلى هذا الحد. لكن غارد حبيب جداً إلى قلبها. تنفست بسعادة غامرة.

عندما وصلت روزي إلى أسفل السلم، كانت السيدة فرينتون خارجة من غرفة المكتبة.

ـ أين غارد؟

سألتها روزي بلهفة وعلى شفتيها ابتسامة سعيدة.

بدت الحيرة على وجه السيدة فرينتون لسؤال روزي وكأنه أدهشها. قالت:

ـ لقد خرج، يا آنسة روزي. أمرني أن أتركك تنامين لأنك أمضيت ليلة مزعجة، وأن أخبرك بأنه سيعود متأخراً هذه الليلة. قال شيئاً عن تناوله العشاء مع زبون بالغ الأهمية في لندن.

شحب وجه روزي، وتحولت بهجتها إلى ارتباك.

لماذا لم يوقظها غارد ويقل لها شيئاً؟ كيف يتركها بهذا الشكل بعد الليلة الماضية، دون كلمة؟ دون ذكر لما حدث؟ بدا النهار أمامها فارغاً، مليئاً بالساعات التي تمضي بطيئة بينما هي تنتظر عودة غارد.

www.elromancia.com

سألتها المرأة:

- هل يمكنني إحضار الفطور لك؟

هزت روزي رأسها صامتة وهي تبتلع غصة في حلقها.

بعد ذلك بعشر دقائق، كانت وحدها في المكتبة تنظر باكتئاب من النافذة عندما انفتح الباب. فكرت لحظة في أنه غارد. انتعشت روحها والتفتت بابتسامة ترحيب دافئة. لكن ليس غارد من دخل إلى المكتبة وإنما إدوارد. قال:

- أليس غارد هنا؟ حسناً، لا تقولي إنني لم أحاول تحذيرك. إنك تعلمين سبب زواجه منك، أليس كذلك، يا روزي؟

أرادت أن تطرده، لكن الكلمات التصقت في حلقها. وبدلاً من ذلك، أشاحت عنه بوجهها، محاولة إسكاته بتجاهلها له. لكن إدوارد ضحك بخشونة.

- إنك لا تريدين سماع الحقيقة، أليس كذلك؟ ألا يمكنك مواجهتها؟ حسناً، يا عزيزتي روزي. علينا جميعاً، مع الأسف، أن نواجه أموراً كريهة من وقت لآخر! أنا، مثلاً، عندما علمت أنني لن أرث هذا المكان، وجدت ذلك أمراً كريهاً للغاية.

قالت له بصوت غير واثق:

- إنك علمت شروط وصية جدي.

أجاب بلؤم:

- آه، هذا صحيح! كما أنني لم أكن الوحيد الذي علم بذلك حينذاك، أليس كذلك يا روزي؟ ألم يساورك الشك حين عرض غارد عليك الزواج؟ كان يعرفك منذ زمن طويل، ولو كان يريدك لكان تقدم إليك...

قالت بغضب:

- ليس عليّ أن أستمع إلى كلامك هذا، يا إدوارد! مشاعر غارد ومشاعري وزواجنا هي أمور خاصة ليس لك شأن بها.

قال بمرارة:

- بل لي شأن بها. اكبري يا روزي وواجهي الحقائق. إنه تزوجك لسبب واحد فقط، تزوجك لأجل «مرج الملكة». وهو لن يستقر حتى يطمئن إلى أن ولده سيرث. لو كان يحبك لتزوجك منذ سنوات.

قال ذلك بغلاظة بينما شهقت روزي ذهولاً وقد شحب وجهها. وزاد إدوارد من قسوته وهو يضيف:

- ولماذا يرغب فيك رجل مثله؟ بإمكانه أن يحصل على أية امرأة يريدها... أية امرأة. لا أريد أن أجرحك، يا روزي. (قال ذلك متصنعاً رقة تثير الغثيان) إنني فقط أحاول أن أساعدك... أحميك. يمكنك أن تتركيه الآن، قبل فوات الأوان. أخبريه بأنك رأيت من تصرفاته ما يدل على عدم حبه لك. إنك تعلمين أنه لا يريدك، أليس كذلك يا روزي؟ لو كان يحبك حقاً، لكان معك هنا الآن. هل تعلمين حتى أين هو أو مع من؟

لم تجرؤ روزي على الاستدارة نحوه ومواجهته كيلا يرى الألم في عينيها. لقد تزوجها غارد لأجل «مرج الملكة». هذا صحيح طبعاً... وهي تعلم ذلك. دائماً كانت تعلم. ما الذي جعلها بهذه الحماقة لتظن العكس؟

أتى صوت من جهة الباب:

- إدوارد، هل لي بدقيقة من وقتك؟ لم أعثر على مفاتيح سيارتي.

أحست روزي بالارتياح وهي تسمع صوت مرغريت آتياً من عند

www.elromancia.com

عتبة الباب.

لاحظت تذمّر إدوارد وهو يتبع زوجته إلى الردهة. أحست مجدداً بالأسى على مرغريت لزواجها من رجل لا يحبها، متسائلة كيف يمكنها احتمال البقاء معه؟

لعل وضعها مع غارد يشبه على نحو ما وضع مرغريت مع إدوارد!.

لم يحبها غارد، بينما بلغت بها الحماقة أن ظنت أنه يحبها... أو أن بإمكانه ذلك. إن تغيّر مشاعرها نحوه بهذا الشكل لا يعني أن مشاعره هو أيضاً تغيرت. كيف تصرفت بكل ذاك الغباء؟ وكيف يمكنها أن تواجهه بعد الآن؟ الحمد لله أن إدوارد جعلها، دون قصد منه، تدرك الحقيقة قبل أن تخبر غارد بأنها تحبه.

ابتلعت ريقها بألم. وعلى الرغم من تحطم قلبها، فإن كرامتها على الأقل ستبقى محفوظة. وإذا واجهها غارد بما حدث بينهما، ستقول له ببساطة إن ذلك كان بسبب خوفها من أن يكتشف إدوارد الحقيقة.

* * *

١٠ ـ نار من قلب الدموع

ـ روزي.

أجفلت روزي عندما سمعت غارد يناديها. كانت وصلت تقريباً إلى الباب الخارجي. هل يمكنها فتحه والهرب؟ لقد عاد مبكراً هذا النهار. وأثناء الشهر الذي مرّ على زواجهما، كان يتأخر في عمله كل ليلة ما جعلها تحرص على أن تكون في الخارج حين يعود، تماماً كما فعلت ليلياً في الأسبوع الماضي.

عندما سألها رالف إن كان بإمكانها المناوبة ليلاً في الملجأ مع أحد المتطوعين، وجدت ذلك فرصة مناسبة، فتبرعت بالعمل عدة ليالٍ أخرى.

رأت رالف يقطب جبينه وهو يسألها:

ـ هل أنت واثقة؟ ألن يعترض غارد؟

أجابت صادقة:

ـ غارد نفسه مشغول جداً.

هل هو مشغول جداً بعمله... أم بتجنّبها؟!

ابتسمت بمرارة. بدا وكأن دهراً مضى منذ كانت تشعر بالقلق لاضطرارها إلى مشاركة غارد غرفته. وكذلك عندما أخذ يغيظها، مازحاً، متحدثاً عن تأثير قربه منها على مشاعرها. لم يخطر لها قط

www.elromancia.com

مبلغ صحة نبوءته هذه، ومبلغ جهلها حينذاك، وغفلتها.

والآن، مع استمرار بقاء إدوارد ومرغريت في المنزل، ليس لديها خيار سوى الاستمرار في مشاركة غارد غرفته. لكن غارد كان يحرص على البقاء في الطابق السفليّ حتى يتأكد من نومها، أو يظن ذلك حين تتظاهر هي بالنوم. كانت تستلقي مغمضة العينين بينما يتنقّل هو في أنحاء الغرفة، محاولة جهدها كبح مشاعرها التي كانت تسبب لها آلاماً رهيبة.

حتى عندما كانت تتأكدّ من استغراق غارد في النوم، لم تكن لتفرّج عن نفسها بالبكاء. لم تكن تجرؤ على ذلك. ماذا لو استيقظ غارد فجأة فوجدها تبكي؟.

مرة أو اثنتين في الأسبوع الذي تلا تلك الليلة، أحست به يراقبها. وفي عدة مناسبات، شعرت وكأنه يوشك أن يقول شيئاً عما حدث. لكنها، كل مرة، كانت تغيّر الموضوع خوفاً مما قد يقول.

كانت روزي بكّرت في الذهاب إلى السرير، مدركة أنها لن تستطيع النوم، لكنها أيضاً، لن تستطيع البقاء مع غارد في الطابق السفليّ. وعندما دخل الغرفة، كانت تتظاهر بالنوم، ويبدو أن ذلك لم يخدعه، لأنه تقدم منها يقول بلطف:

ـ أعلم أنك مستيقظة يا روزي! يجب أن نتحدث قليلاً.

رفضت حينذاك بذعر، متكهنة بما سيقول. يريد أن يخبرها بأنه يعلم مبلغ تعلقها به، لكنه لا يحبها. يريد أن يذكرها بشروط زواجهما، أن يبدد الوهم الذي تملكها بعد تلك التجربة العاطفية الملتهبة. سيقول إن ما بدا لها لم يكن إلا من نسج خيالها.

كانت قد أجابته بحدة وعنف:

ـ لا! لا أريد التحدث معك! ليس هناك ما نتحدث فيه!

تراجعت قليلاً وهي ترى فكه يتوتر بغضب. لكنه لم يصرّ على الجدال معها، وإنما قال بصعوبة:

ـ لابأس، يا روزي، إذا كان هذا ما تريدين.

لم تجب حينذاك. لم يمكنها ذلك، وإنما أشاحت بوجهها عنه متكورة على نفسها. ما كانت تريده حقاً هو حبه. كانت تريده حقاً أن يعانقها قائلاً إنه يحبها، وإنه لا يستطيع العيش من دونها.

ـ روزي!

ناداها غارد مرة أخرى بحدة تنذر بالشر. فات أوان الهرب الآن! وبعد أن أصبح في الردهة، سألته دون أن تنظر إليه مباشرة:

ـ ماذا تريد يا غارد؟ كنت على وشك الخروج لأنني أناوب في الملجأ هذا المساء. يجب أن أذهب وإلا تأخرت.

قال بلطف:

ـ لا! إنك لن تعملي في أي مكان، الليلة، يا روزي! لأن علينا أن نتحدث هذه الليلة.

قالت بذعر:

ـ لكنني لن أستطيع خذلان رالف! إنه يتوقع وجودي! ثم إنهم يعانون نقصاً في الموظفين بسبب كل تلك الاجتماعات التي يقوم بها رالف لتجديد عقد الإيجار.

كان مالك مبنى الملجأ أعلن أنه سيبيعه عندما تنتهي مدة العقد، فأخذ رالف يحاول العثور على طريقة يجمع بها المال ليشتريه، ولكن دون جدوى. حتى إنه طلب منها أن تقترح على غارد شراء المبنى لهم. وكانت روزي أجابته بضيق:

ـ لا! لا يمكنني القيام بذلك، يا رالف!.

كما أنها لم تستطع توفير المبلغ بنفسها لأن أموالها وديعة مجمدة

www.elromancia.com

في البنك.

قالت:

ـ يمكننا التحدث غداً.

قال ساخراً:

ـ أحقاً؟! هل أنت واثقة من أنك لن تجدي غداً موضوعاً أكثر أهمية؟ لا يا روزي. أنا لست رجلاً صبوراً في العادة، ولكنني، أفهم أن الأمور ليست سهلة بالنسبة إليك. الهرب لا يحل مشكلة، كما تعلمين. عندما تزوجنا، عقدنا اتفاقاً ينصُّ على أن يبدو زواجنا طبيعياً تماماً. لهذا، ليس من الطبيعي يا روزي، بالنسبة إلى زوجين في شهر العسل، أن يمضيا معاً وقتاً قليلاً بهذا الشكل...

قاطعته بلهجة غاضبة:

ـ أنت من يتأخر ليلاً على الدوام.

ـ أحقاً؟ وما أدراك بالوقت الذي أعود فيه ليلاً بينما أنت لست هنا؟

أخذت روزي تحدّق فيه. كانت تعرف الوقت لأن إدوارد حرص على أن يعلمها به، مستغلاً كل فرصة ليخبرها أن غارد لم يعد إلى البيت قبل الثامنة أو التاسعة. وعندما كانت تعود من عملها الساعة الحادية عشرة ليلاً، كان غارد بطبيعة الحال يعمل في المكتبة.

كرر غارد قوله متجهماً:

ـ لقد عقدنا اتفاقية، لكنك لا تحاولين تنفيذها، مفضلة قضاء كل وقتك في الملجأ، أليس كذلك؟

قالت بفتور:

ـ يبدو أن هذا أفضل ما يمكن القيام به.

سألها بانفعال:

ـ ماذا؟ أفضل؟ أفضل بالنسبة لمن؟ لقد بدأ الناس يتكلمون. بدأوا يتساءلون عن نوع هذا الزواج، حين تمضي معظم الوقت متباعدين! يا إلهي، حتى إدوارد أخذ يتعاطف معي وينصحني محذراً من أن الناس أخذت تتحدث عن مقدار الوقت الذي تمضينه مع رالف. يبدو أن إدوارد أيضاً يظن بأن رالف يحاول إقناعك بتمويل الملجأ.

سألته بحدّة:

ـ هل هذا... هل هذا ما كنت تريد أن تحدثني عنه؟

ـ إنه شيء من أشياء.

شيء من أشياء؟ وما هي الأشياء الأخرى؟ أخذت روزي تتساءل عن ذلك حزينة. أمس فقط أبدى إدوارد تعليقاً على مبلغ ما يبدو عليها من تعاسة واصفاً إياها بـ «الحبيبة المهجورة»، مظهراً شفقة زائفة، متظاهراً بالأسف لهجران غارد لها، قائلاً:

ـ لا تتهافتي عليه بهذا الشكل. أمثال غارد يحبون المطاردة، الصيد، وأنت جعلت الأمر سهلاً جداً بالنسبة إليه ما جعله يسأم منك.

سألها غارد برزانة:

ـ هل طلب رالف مالاً منك يا روزي؟

ـ إنه قلق من ناحية عقد الإيجار واحتياجات الملجأ...

قاطعها بغضب:

ـ احتياجات الملجأ؟! أخبريني، يا روزي، هل فكرت يوماً ما بحاجات أخرى؟ حاجات شخص آخر؟ أم أنك عمياء حقاً بحيث لا...

سكت فجأة عندما انفتح الباب ودخل إدوارد الردهة.

www.elromancia.com

ـ آسف! (قال ذلك بتكلف وهو ينقل نظراته بين وجه روزي الشاحب ووجه غارد الغاضب) أتراني قطعت عليكما لحظة سيئة؟

ـ هل كنت تريد شيئاً يا إدوارد؟

سأله غارد ذلك بضيق دون أن يحوّل عينيه عن وجه روزي، متجاهلاً سؤال إدوارد.

ـ نعم. أريد التكلّم معك يا غارد، إذا لم يكن لديك مانع. الولدان سيعودان من المدرسة قريباً، ومرغريت متخوفة من عدم وجود أدوات إطفاء الحريق في الطابق العلوي، وأنا أوافقها على ذلك. ولأجل الأمان، أظن أن علينا الانتقال إلى الطابق الذي تحتنا أثناء وجودهما هنا...

اتجهت روزي بسرعة إلى الباب، متجاهلة أمر غارد لها بحدة:

ـ روزي!... انتظري!.

ركضت إلى سيارتها متوقعة أن يلحق بها، وفتحت بابها ودخلت.

كان عليهما أن يتحدثا، لكنها لم تستطع. كانت متخوفة من أن تسمعه يقول بأنه لم يعد يستطيع الصبر، وأنه سيرحل.

ولكن، ألا يمكن أن يكون هذا هو الأفضل في الحقيقة؟ إلى متى يمكنها الاستمرار في العيش قريبة منه بهذا الشكل، عالمة بمبلغ حبها له، عالمة بأن إدوارد يراقبهما كل لحظة، عالمة بأن الوقت الذي يمضيانه معاً يتناقص باستمرار، متخوفة من أن تفضحها مشاعرها، ومتوقعة في كل لحظة سماع قوله بأنه لا يريد حبها...

في الملجأ، أمضت المساء بطوله قلقة متوترة، غير قادرة على التركيز في عملها. وتملكها الارتياح عندما انتهى واجبها وصار بإمكانها العودة إلى البيت.

أول ما لاحظت حين أوقفت سيارتها خارج المنزل أن سيارة غارد غير موجودة.

انقبض قلبها وشعرت بالتعاسة رغم أنها حاولت إقناع نفسها بأن الأمر عادي.

استولى عليها الصداع طوال المساء، وكانت قد تناولت حبتي أسبرين عندما أطلّ إدوارد. سألها بلهفة مصطنعة:

ـ أتشعرين بوعكة؟

ـ لدي صداع!

كرهت عادة ظهوره كلما شعرت بعدم الرغبة في رؤيته. بدا وكأنه يتجسس عليها. قال وهو يراقب ردّة فعلها:

ـ غارد خرج.

ـ نعم، لاحظت هذا.

أرادت مغادرة المكان لكن إدوارد أضاف بخبث:

ـ تلقى اتصالاً تليفونياً... من امرأة. طلب مني أن أخبرك بأنه سيغيب طوال الليل.

شعرت روزي بالدم يهرب من وجهها، مدركة بأن إدوارد رأى ذلك.

ـ آه، يا لروزي المسكينة!.. حظك سيء أليس كذلك؟ عاجلاً أو آجلاً سيتركك! نعم، سيبقى هنا بما يكفي لتحقيق مأربه، لكنه سئم منك الآن أليس كذلك؟ شابة في عمرك، ربما يتوقع منها أن تحمل مباشرة... هل أنت حامل يا روزي؟ منذ فترة والشحوب يبدو عليك...

شهقت روزي بغضب بالغ وقالت ثائرة:

ـ هذا ليس من شأنك.

www.elromancia.com

فقال بلطف:

- بل هو من شأني، الأمر يهمني تماماً. كما يهمني هذا المنزل! أرجو ألا تكوني حاملاً، يا روزي، لأنه إذا كنت كذلك... حسناً، لنقل إن بقاءك في هذا المكان مخاطرة كبيرة لأنك بحاجة إلى العناية البالغة، لعلك فهمت ما أعني. غارد لن يكون مسروراً إذا أنت فقدت طفله. أليس كذلك؟ سيكون مضطراً لتمديد إقامته معك للحصول على طفل، في الوقت الذي يفضل أن يكون مع امرأة أخرى... لم يمضِ على زواجكما شهر حتى الآن وها قد ملَّ منك، يا روزي! أتركيه الآن فما زال أمامك متسع من الوقت. إنه لا يريد سوى المنزل، إنه لا يريدك ولم يردك قط!

شهقت روزي باكية وهي تندفع نحو غرفتها باحثة عن الأمان.

الأمان؟ وكيف تشعر بالأمان بعد كلام إدوارد المبطَّن بالوعيد!

لا بد أنه مجنون، مخبول! لكنها تعرف أنه ليس كذلك.

ارتجفت بعنف وهي تتكوّم في منتصف السرير.

ما المفروض أن تشعر به الآن لو أنها حامل؟ الغثيان، الخوف، الكرب المبرح؟ حركتها الغريزية لستر بطنها بيدها أخبرتها بالجواب!.

لا يمكنها أن تستمر بهذا الشكل! حبها لغارد ورغبتها فيه، ثم معرفتها بعدم حبه لها! العيش بخوف من إدوارد وتهديده! ولكن، إلى أين تذهب؟ إلى الملجأ؟ وارتسمت على فمها ابتسامة مرة... هذا غير ممكن!.

- أنت لا تأكلين فطورك.

قال ذلك باختصار فأجابت بوجه شاحب:

- لست جائعة.

كان الوقت صباح السبت، وهذه المرة لم يكن لديه عمل هام يجعله يغيب عن البيت.

لم يقل لها شيئاً بالنسبة لرفضها التحدث معه، ولم يقدم أي إيضاح لغيابه طوال الليل منذ أيام.

كان غارد يقف عندما دخل إدوارد غرفة الطعام. قال لها شارد الذهن:

- عليّ أن أخرج بعد قليل.. لا أدري كم سأغيب. ماذا ستفعلين أنت؟

قالت دون أن تعني ذلك تماماً، متجنبة النظر إليه:

- سأخرج للتسوق.

قال إدوارد ساخراً، وهو يبتسم لهما:

- آه، يا لهذه الزيجات العصرية!

لكنه، بعد ذلك بساعة، لم يكن يبتسم عندما صادف روزي على السلم بعد خروج غارد. قال ينصحها:

- كفى تصعيباً للأمور على نفسك، يا روزي. أتركيه. إنه يريك بوضوح عدم اهتمامه بك، ومدى اهتمامه بها.

- بها؟!

أفلتت هذه الكلمة التي تكشف عن عذابها بالرغم منها. قال بابتسامة متكلفة:

- آه، هيا.. لا يمكنك أن تكوني ساذجة إلى هذا الحد! إن زوجك يغيب الليالي بطولها، وليس هناك سوى تفسير واحد، أليس كذلك؟ وهو وجود امرأة أخرى، بل عدة نساء، نظراً لسمعة غارد.

شعرت روزي فجأة بأنها لم تعد تحتمل. شعرت بدموعها على وشك الانهمار. كل وخزات إدوارد، كل قسوته، كل تهديداته، كل

www.elromancia.com

آلام حبها لغارد ومعرفتها بعدم حبه لها، كل هذا أصبح فجأة كثيراً عليها.

خفضت رأسها وهربت إلى أمان غرفتها.

الغرفة، غرفتها، والسرير الذي تشترك فيه مع غارد. تشترك فيه معه؟ أغمضت عينيها بشدة على فيض دموعها الحارة.

عندما انهمرت دموعها على وجهها، تناولت وسادة غارد تحيطها بذراعيها تدفن فيها وجهها، محاولة أن تشم رائحته الخفيفة وكأنها دواء يخفف آلامها.

- روزي! . . . روزي ما هذا؟ ماذا تفعلين هنا؟

غارد! . . . لكنه خرج! أجفلت روزي لسماعها صوته دون أن تجرؤ على الالتفات. سألها:

- ماذا حدث؟ هل تشعرين بمرض؟ أخبريني . . .

كان واقفاً الآن بجانب السرير، منحنياً عليها ويداه ممدودتان إليها. وبحزن بالغ، رفعت وجهها إليه.

- هل تبكين؟

جلس بجانبها على السرير. بجانبها، لكنه، كما لاحظت، ما زال بعيداً عنها.

- ما هذا؟ ماذا حدث؟

- لا شيء!.

- هل هو رالف؟ الملجأ؟ هل . . .

رالف؟ حدقت روزي فيه. ولماذا تبكي لأجل رالف؟ قالت متبرمة:

- رالف؟ ليس لأجله طبعاً.

بدت في عيني غارد نظرة جعلت قلبها يخفق. قال يلح عليها

بهدوء:

- حسناً، إذا لم يكن رالف، ماذا إذن؟ أو بالأحرى من هو؟

جلست روزي بعنف، مبتعدة عنه قليلاً وهي تقول:

- قلت ستخرج؟!

قال بخشونة:

- يمكن تأخير ذلك، أما هذا فلا. ما الأمر يا روزي؟ ولا تقولي (لا شيء). اللاشيء لا يجعلك تبكين.!

تملكها الذعر وهو يمد يده يلمس وجهها الساخن المبلل بحنان. إنه حنان مخادع، تماماً مثل نظرته التي بدت في عينيه وكأنها اهتمام حقيقي! من الخطأ الفادح أن تنخدع بذلك. أخذت تحذر نفسها بأن ذلك خطأ شنيع.

لم تستطع أن تخبره بالحقيقة. وكيف يمكنها ذلك بينما . . . وانتفضت فجأة وهي تسمع صوت خطوات شخص في الممر. هتفت بذعر:

- إنه إدوارد، يا غارد! لا تدعه يدخل! لا . . .

- إدوارد؟

عندما سمعت نبرة الاستفهام الحاد في صوت غارد، توهج وجهها. سألها وهو يمرّر يده على وجهها برقة:

- هل إدوارد هو سبب هذا . . . كل هذه الأمور؟

عضت روزي شفتها، خائفة من الجواب، لكنها لم تستطع أن تغالب فيض الدموع الحارة التي كشفت عن مشاعرها. سألها:

- أخبريني بكل شيء، يا روزي. أريد أن أعلم ما الذي يحدث هنا. ما الذي فعله إدوارد ليسبب كل هذا؟

قالت بتعاسة:

www.elromancia.com

ـ لا أستطيع! أرجوك، لا ترغمني على ذلك، يا غارد. أتمنى فقط أن يرحل عنا. (وأخذت تبكي) أكره أن أراه يراقبني، يتجسس عليّ! إنه يعلم يا غارد. أنا أعرف أنه يعلم! ثم إنه...

ـ يعلم ماذا؟

ـ أن هذا ليس زواجاً حقيقياً... إنه يقول ذلك ويهددني.

قاطعها بحدة:

ـ يهددك؟! روزي، لم يعد بإمكانه أن يفعل شيئاً الآن. ولا بد أنك تعلمين هذا، مهما كانت أسباب زواجنا ونوايانا فقد تلاشت قدرة إدوارد على تدميرنا وذلك منذ اللحظة التي تحول فيها زواجنا من الزيف إلى الحقيقة. لم يعد يمكنه القيام بشيء الآن، وليس له ملجأ قانوني يساعده.

ـ لا... لا ملجأ قانونياً له.

قطب غارد جبينه:

ـ روزي، ما الأمر؟ ماذا تريدين أن تقولي؟

كانت ترتجف، وجسدها أصبح فجأة شديد البرودة، وشعرت بما يشبه المرض. قال محذراً:

ـ روزي!

هزت رأسها بيأس، ثم قالت بهدوء:

ـ إنه لا ينفك يقول بأن علينا إنهاء هذا الزواج... يقول إنك تحاول أن... إنه يظن... (خفضت رأسها وقد توهج وجهها احمراراً، غير قادرة على أن تحمل نفسها على النظر إليه) إنه يظن أنه إذا أصبح لدينا طفل، سيكون حصولك على البيت مضموناً. لقد تكهن بأن هذا هو سبب زواجنا، يا غارد. حتى إنه هددني...

وابتلعت ريقها بصعوبة وابتسمت بابتسامة صفراء:

ـ أخبرني أن في منزل كهذا، سيكون من السهل على أية امرأة أن تفقد جنينها.

ـ ماذا؟!

ارتعبت روزي وهي ترى الغضب في عينه وتسمعه يأمرها بحزم:

ـ إبقي هنا!.

خرج لأقل من نصف ساعة، ولما عاد شعرت روزي بالتوجّس من الجمود والهدوء البادين على ملامحه.

ما الذي قاله لإدوارد؟ والأهم من ذلك، ما الذي قاله إدوارد له؟ أتراه أخبر غارد عن مشاعرها؟ أتراه...

قال بثقة وخشونة:

ـ لقد رحل إدوارد، يا روزي، ولن يعود.

حدقت روزي فيه. كيف استطاع غارد أن يحمله على الرحيل بهذه السهولة والسرعة؟ كان إدوارد بالغ التصميم على البقاء، وكان غارد أخبرها بأن من المجازفة البالغة أن يطلبا منه الرحيل.

ـ رحل؟ وبهذه السهولة؟

انهمرت من عينيها دموع جديدة، لكنها الآن كانت دموع الارتياح.

ـ آه! يا إلهي! لا تبكي يا روزي!.

اقترب منها، وبدا واضحاً أنه سيضمها مواسياً، فانتفضت مبتعدة عنه وقد اتسعت عيناها لأسباب شتى مختلطة.

ـ لا حاجة بك للابتعاد عني وكأنني نوع من... أنا لن ألمسك.

ـ أعلم أنك لن تلمسني.

قالت ذلك محولة وجهها عنه عندما شعرت بدموع جديدة ابتدأت تنهمر. ثم سمعته يسألها برقة:

www.elromancia.com

ـ حسناً، إذا كنت تعلمين ذلك، لماذا إذن... روزي... أنظري إليّ.

همست تقول:

ـ لا أستطيع!.. لا أستطيع!.

ـ بل تستطيعين!

ارتجفت وهو يحيط وجهها بيديه ثم يرفعه ليرى عينيها المغرورقتين بالدموع. قال بهدوء:

ـ والآن، إذا كنت تعلمين أنني لن ألمسك، لماذا انتفضت مبتعدة عني بهذا الشكل؟

حاولت روزي مغالبة دموعها بشدة، وارتجفت شفتاها وهي تفشل في ذلك، ثم اكتسحتها المشاعر حتى لم تعد تستطيع المقاومة، فقالت بصوت معذب متهدّج:

ـ لأنني أريدك أن تلمسني. لأنني أحبك وأريدك ولا أستطيع أن... غارد... غارد...!

تبدد احتجاجها تحت وطأة عناقه. أخذها بين ذراعيه بعنف جعلها تشعر بقوة دقات قلبه المماثلة لدقات قلبها.

ـ روزي!.. روزي.

لم تكد تميز في هذا الصوت العنيف المختنق صوت غارد الذي تعرفه. ودار رأسها. لا بد أنها في حلم!.

هل هذا حقاً غارد الذي يحتضنها بهذا الشكل.. ويخبرها بمبلغ حبه لها، وكم كان يحبها على الدوام، وأنه كان يتلهف لسماع ما قالته لتوّها.

قالت وهي ترتجف، وتبعده عنها قليلاً لتنظر في عينيه، والخجل والارتباك باديان عليها:

ـ ولكن لا يمكن أن تكون أحببتني. كنت دوماً تكرهني..

ـ أواه، يا روزي! أنت فقط تظنين ذلك.. أنت فقط من يستطيع أن يظن هذا... لماذا تظنينني تزوجتك؟

قطبت روزي جبينها:

ـ لأنني طلبت منك ذلك، لأنك أردت المنزل.

ـ كلا، يا روزي! كنت أريدك وأرغب فيك، أردتك وسأريدك على الدوام.

قال ذلك وهو يعدّ الكلمات التي يقولها على أصابعها، ثم ينحني ليقبل كل إصبع منها بحنان فائق.

شعرت روزي بكيانها كله يهتز لردة فعلها إزاء الأحاسيس التي تملكتها وهو يقبل أصابعها. شعرت بذلك حتى أخمص قدميها.

ـ لكنك لم تكن تريد الزواج بي!. أنا التي طلبت منك ذلك. ثم إنك قلت إنك بحاجة إلى وقت للتفكير...

ـ ذلك لكي أتمكن من السيطرة على نفسي، والتدرب على التصرف ببراعة بالنسبة لما تطلبينه مني. كنت محظوظة جداً لأنني لم أختطفك حينذاك. فقط لأريك، بالضبط، رأيي في خطتك عن زواج المصلحة ذاك. ربما هذا ما كان علي أن أفعله.

لم تستطع روزي إخفاء القشعريرة التي سرت في كيانها، والتوهج الذي أحرق بشرتها.

ـ هل كنت ستحبين ذلك يا روزي؟

ـ أنا... آه، يا غارد! كيف أحببتني دون أن أدري؟

ـ بإحباط بالغ وجهنم من الغيرة!

ـ أنت تغار؟ وممن؟

ـ من رالف، أولاً، ثم من بريسيه ثانياً. يا إلهي، عندما رأيته

www.elromancia.com

يغازلك... اعتبرت نفسي دائماً رجلاً منطقياً رصيناً، لكنني تلك الليلة... تملكتني رغبة عنيفة باختطافك وإرجاعك إلى البيت... بيت الزوجية.

قالت بألم:

- قال إدوارد إنك لا تحبني، وإنك لم ترغب بسوى البيت، قال... قال إن لديك امرأة أخرى فظننت... لماذا ما دمت تحبني يا غارد، لماذا لم... لماذا لم تقل شيئاً تلك الليلة، ليلة...

ونظرت إليه ضارعة، فقال ساخراً من نفسه أكثر مما هو منها:

- أواه، يا روزي! ما أقلّ ما تعرفين! كنت كارهاً أن أدع رغباتي ومشاعري تدمر سيطرتي على نفسي. بعد أن لجأت إليّ خائفة مذعورة تطلبين المواساة والاطمئنان، لم أقصد قط أن... ظننتك غاضبة مني فلم تتحدثي عما حصل.

همست تقول:

- وأنا ظننتك غاضباً مني. وعندما استيقظت في الصباح ولم أجدك...

- حسبت أنك لا ترغبين في رؤيتي ذاك الصباح!

نظرت إليه بحيرة!

- ولكن لا بد أنك أدركت... شعرت بأنني...

- بأنك تجاوبت معي بعاطفة قوية؟ نعم، أدركت ذلك. لكنك على الدوام مرهفة الإحساس شديدة العاطفة في كل ما تفعلين!

- لكنني كنت واضحة في الموافقة على أن نكون معاً في غرفة واحدة!

- نعم، كان ذلك واضحاً، لكنني لم أجرؤ على التصديق، وتملكني أيضاً شعور بالذنب.

سألته مقطبة الجبين:

- الشعور بالذنب؟ لأنك معي، أنا زوجتك، في غرفة واحدة؟

- هذا بالإضافة إلى أشياء أخرى.

سألته بحيرة:

- ما هي تلك الأشياء الأخرى؟

أجاب وهو يتأملها بإمعان:

- الموافقة على الزواج بك بدلاً من محاولة مساعدتك بالعثور على طريقة أخرى لتدبّر حول الموضوع. ثم انتهاز فرصة قرار إدوارد بالإنتقال إلى هنا...

- انتهاز الفرصة؟ وكيف؟

- بأن جعلتك تنامين في غرفتي. هل ظننت أنني لم أكن أستطيع الذهاب لإحضار ملابسك لو أردت أنا ذلك حقاً؟

- لكنك لم تكن ترغب في مشاركتي الغرفة. أنت قلت ذلك.

- أواه، يا روزي! طبعاً كنت أريد ذلك! أردت ذلك وأكثر!

أحاط وجهها بيديه وأخذ ينظر في عينيها.

- هل صدّقت حقاً أنني لم أكن أستطيع التخلص من إدوارد أو طمأنتك إلى أن ليس علينا أن نتشارك في غرفة واحدة إذا كان هذا ما أريده؟ هل صدمتك بقولي هذا؟

هزت روزي رأسها:

- بل أدهشتني! لم يكن لديّ فكرة.

قال برقة:

- أظنني وقعت في غرامك ليلة العثور عليك متسللة لسرقة صيد جدك. فتاة صغيرة الحجم، شديدة الحيوية والانفعال. كنت لا تزالين صغيرة بالنسبة لأمور كثيرة. وفي أمور أخرى امرأة أو، على الأقل،

www.elromancia.com

هذا ما حدثتني به مشاعري. أما عقلي... (وهز رأسه) كنت أعلم أن الوقت ما زال باكراً. كنت صغيرة جداً. حتى إنك لم تحبيني... وبقيت على عدم حبك لي، لكنك كنت تظهرين نحوي مشاعر جعلتني أتعلق بالأمل في أنك يوماً ما... ربما يوماً ما...

قاطعته برقة:

ـ سأغرم بك؟

سألها بسرعة:

ـ وهل هذا ما حدث، يا روزي؟

هزت رأسها:

ـ لا، لم أقع في غرامك يا غارد!

قالت ذلك بحزم، رافعة يدها إلى وجهه بحركة غريزية للتخفيف عنه بعد أن رأت الألم على وجهه:

ـ الوقوع في الغرام هو للمراهقين، الفتيات، وأنا امرأة. أنا أحبك يا غارد. أحبك كما تحب المرأة الرجل... كلياً وإلى الأبد.

لشدّ ما تأثرت وهي ترى الدمع في عينيه. مدّت يدها تقربه إليها هامسة:

ـ أواه، يا غارد!.. غارد...

بعد لحظات كانت بين ذراعيه وهي تبتسم بحب، ثم قالت متعجبة:

ـ هل كنت حقاً تغار من رالف؟

ـ إلى أقصى حد! وهذا ما استغله إدوارد لمنفعته الشخصية بكل نجاح.

قالت:

ـ لقد تلاعب بنا، نحن الاثنين. ماذا قلت له لكي يرحل، يا

غارد؟

أجاب وهو ينحني ليقبلها:

ـ قلت له إنه إذا قال شيئاً يكدرك مرة أخرى، سأجعله يندم على ذلك بقية حياته. كما قلت له إذا لم يغادر المنزل ويخرج من حياتنا خلال نصف ساعة، سيجد أموره المالية والعملية معرضة لنوع من الفحص والتدقيق يجعل كل أنواع الغش والتزوير تبدو، بجانب ما سيكتشفونه، أشياء عادية.

ـ ظننت أنك سوف...

ـ سوف ماذا؟ هل كنت تفضلين قيامي بشيء آخر؟

ـ لا... لا شيء!.

قالت ذلك وهي تمد ذراعيها تعانقه.

* * *

ـ هل ما زلت تحبينني؟

فتحت روزي عينيها بتثاقُل. كانت متكورة بجانبه يكاد يغلبها النعاس بعد فيض الحب الذي ملأ كيانها. أجابت:

ـ أكثر من أي وقت مضى، وأنت؟

أجاب بهدوء:

ـ نعم! أكثر من كل ما مرّ عليّ في حياتي أو سيمرّ. إنك حياتي، يا روزي. حياتي وحبي. اليوم وغداً وإلى الأبد، أحبك!.

* * *

www.elromancia.com